

العزبة
١٨٧٦

« العذبة » نشرت لأول مرة كراسة كاملة من « يوميات
 كاتب » (تشرين الثاني - نوفمبر ١٨٧٦ الفصل الأول
 والثاني

حكاية خيالية

مقدمة المؤلف

أعتذر الى قرائى عن أننى لا أقدم اليهم « اليوميات » فى صورتها المعتادة المألوفة هذه المرة ، وانما أقدم اليهم حكاية خيالية + صحيح أن هذه القصة قد شغلت شطراً كبيراً من الشهر ، ومع ذلك اسئحهم عذراً وألتمس منهم العفو والتسامح +

وقد وصفت القصة بأنها خيالية رغم أننى أعدها واقعية قبل كل شئ . ولكن الخيال قائم فيها حقاً بحكم أننى أقدمها فى صورة قصة + فرأيت أن من المفيد أن أشير الى هذا منذ البداية +

الواقع أن ما أرويه الآن ليس حكاية ولا هو ذكريات + تخيلوا زوجاً ترقد على مائدته جثة امرأته التى انتحرت منذ بضع ساعات بالقاء نفسها من النافذة + انه يعانى انفعالاً عنيفاً شديداً ، ولما يستطع أن يثوب الى رشده وأن يسترد صوابه + فهو ينتقل من غرفة الى غرفة ، محاولاً أن يتصور ما حدث ، وأن يتخيل ما جرى ، وأن « يركّز أفكاره فى نقطة » + ثم ان هذا الرجل سوداوى المزاج فى أعماق نفسه ، لا ينفك يجتر أفكاراً ثابتة ، ولا يفتأ يناجى نفسه فى السر ، ويكلمها بغير انقطاع + انه اذن يتحدث الى نفسه ، فيقص عليها القصة ويحكى لها الحكاية ، ويحاول أن « يفسر الأمر لنفسه » ، جاهداً + ورغم ما يلوح فى قصته من

اتصال ظاهري وتسلسل طبيعي ، فانه يرتكب مخالفات منطقية ، ويقع في تناقضات عاطفية . انه يبرىء نفسه ويدّينها في آن واحد ، كما أنه ينزلق الى تأويلات خاطئة ، والى ذلك يضاف شيء من غلظة في الفكر والقلب تمازجها مع هذا عاطفة عميقة . وقد استطاع شيئاً فشيئاً أن « يفسر الأمر لنفسه » ، وتوصل الى « تركيز أفكاره على نقطة » ، اذ ساقته سلسلة من الذكريات الى الحقيقة سوقاً لا سبيل الى مقاومتها : فبثت هذه الحقيقة حماسة وحمية في فكره وقلبه . فاذا لهجته نفسها تتغير في نهاية القصة اذا قيست بما اشتملت عليه البداية من فوضى وبلبل . لقد انكشفت الحقيقة واضحة جلية لهذا الشقي البائس ، انكشفت له هو على الأقل . . .

ذلكم هو الموضوع . والقصة تتابع عدة ساعات ، وتخللها انقطاعات ووقفات ، وتعتورها صدمات : فالرجل تارة يتحدث الى نفسه ، وتارة يخاطب شخصاً لا يرى هو بمثابة قاض .

ولو استطاع مختزل أن يسمع ويسجل كل ما يقوله ، لجاءت القصة أشد وعورة وخشونة مما أرويه أنا . ولكن الحياة النفسية تبقى فيها تلى حالها فيما يغلب على ظني . ان هذا الافتراض الذي افترضته عن المختزل (على أساس أن المؤلف لا يتدخل الا بعد ذلك) هو ما جعلني أصف هذه القصة بأنها خيالية . على أن هذا الأسلوب لا يظهر في الفن هنا لأول مرة تماماً : لقد استعمله فكتور هوجو ، مثلاً ، في رائعته « اليوم الأخير من أيام رجل محكوم عليه بالموت » . ولئن لم يعتمد على مختزل ، فقد أجاز لنفسه أمراً أشد ايغالا في البعد عن الواقع والنأي عن الاحتمال ، وذلك حين افترض أن رجلاً محكوماً عليه بالموت يمكن أن يسجل ما جرى لا في آخر يوم من أيامه فحسب ، بل في آخر ساعة ، بل في آخر دقيقة . فلو لم يسمح فكتور هوجو لنفسه بهذه البدعة الغريبة ، لما أتيح لهذا الأثر من آثاره أن يوجد ، وهو أقرب آثاره الى الواقع ، وأدناها من احتمال الحدوث .

الفصل الأول

من كنت ومن كانت

... هي ذى هنا الآن - فما زال الأمر حسناً • انتهى أجيء • فأنظر إليها في كل لحظة • ولكنها ستحمل غداً ، فأبقى وحيداً ، فما عسى أفعل ؟ هي الآن في الصالون ، مسجّاة على مائدة صُنعت من ضمّ طاولتين احدهما الى الأخرى • ولكن تابوتها سيكون في الغد أبيض بياضاً تاماً ، وسيكون كفنها أبيض • على أن الأمر ليس هو هذا ... انتهى ما أنفك أذهب وأجيء • محاولاً أن أفسر المسألة لنفسى : ها قد انقضت ساعات ست وأنا أحاول أن أفسر المسألة لنفسى ، فلا أفصح في تركيز شتات أفكارى • الحق أنتى لا أزيد على أن أذهب وأجيء ، أن أذهب وأجيء • اليكم كيف جرى الأمر ... سأسرد لكم الحوادث متسلسلة منظمة (لا بد من النظام !) آه ... رباه ... ما أنا بكاتب ... انكم تلاحظون ذلك ... ولكن لاخير • سأقص الأمر على نحو ما أفهمه • ذلك أن أفزع ما فى القضية فى نظرى هو أنتى فهمت كل شيء •

إذا كنتم تحرصون على أن تعرفوا ، أى إذا كنتم تحرصون على أن أبدأ بالبداية ، فاعلموا أنها إنما جاءت الى لتقترض منى بعض المال برهن بعض الأشياء • كانت تريد أن تدفع أجر اعلان فى جريدة « الصوت » تذكر فيه أنها معلمة وأنها مستعدة للسفر معلمة ، أو للمعجى الى البيوت تعطى دروساً ، الخ ، الخ • ذلك فى بداية الأمر • فلم أميزها عن كثيرات

متلها • كانت تأتني كما يأتني سائر الناس ، بل كانت تأتني ببساطة أكبر من بساطة سائر الناس • وقد لفتت انتباهي فيما بعد • كانت نحيفة القامة ، شقراء ، ربعة الطول • وكانت شديدة البطء والتهيب في مخاطبتي ، كما تكون امرأة خائفة • (أظن أن حالها هذه كانت حالها مع جميع الرجال الغرباء عنها ، وطبيعي أنني لم أكن في نظرها إلا رجلاً كسائر الرجال ، أي لم أكن في نظرها مرابطاً يُقرض برهون ، بل رجلاً كأى رجل آخر) • كانت ما ان تأخذ المال حتى تدير ظهرها وتنصرف ، دون أن تقول شيئاً في أية مرة ان بين المقترضات من يناقشن ويلحجن ويساو من للحصول على مبلغ أكبر • أما هذه فلا • لقد كانت تقبل ما يُعطاه • يخيّل الى أنني أهدر هدراً مضطرباً لا يفهم • الخلاصة ••• هناك تفاصيل لفتت انتباهي اليها في أول الأمر : القرطان الصغيران اللذان يزينان أذنيها وهما من فضة مطلية بذهب ، حليتهما الصغيرة التافهة التي لا تساوي قرشاً ، وما الى ذلك • كانت هي نفسها تعرف أن جواهرها هذه لا تساوي قروشاً • ولكنني كنت ألاحظ من النظر الى وجهها أنها تعدّها أشياء ثمينة • ذلك أن هذه الجواهر هي كل ما بقي لها من أبيها وأمها ، كما عرفت هذا فيما بعد • مرة واحدة أبحث لنفسي أن أبتسم استهزاءً بهذه الأشياء • والحق أنني في العادة لا أبيع هذا لنفسي أبداً • انني أعامل الزبائن معاملة رجل مهذب ، ولا أعبرّ عما أريد التعبير عنه الا بكلمات قليلة ، أقولها بلهجة مؤدبة جافة ، « جافة ، جافة جافة » • غير أنها جاءتني ذات مرة ببقايا (نعم ببقايا) معطف قديم من فراء الأرنب - فلم أستطع أن أكظم ما قام في نفسي ، فقلت لها كلاماً فيه شيء من التندر • فما أسرع ما تخضب وجهها بحمرة شديدة ! وكانت عيناها زرقاوين نجلاوين حالمتين ، فما أسرع ما اتقدتا فكان شرراً يخرج منهما ! ولم تقل كلمة واحدة بل لمت « خرقها » وخرجت • وعندئذ انما لاحظتها لأول مرة « ملاحظة خاصة » ، وفكرت فيها • نعم ، فكرت فيها تفكيراً

خاصاً أيضاً • أجل ، هذا ما حدث • اننى لا أزال أتذكر الاحساس الذى قام فى نفسى ، أو قولوا الاحساس الرئيسى الذى هو مركّب جميع الاحساسات الأخرى : انها فى ميعة الصبا فلا يقدر المرء أن تكون سنّها أكثر من أربعة عشر عاماً • ومع ذلك كانت سنّها ستة عشر عاماً الا ثلاثة أشهر • على أن هذا ليس ما كنت أريد أن أقوله ، ليس هذا مركّب الاحساسات الذى قام فى نفسى • ولقد عادت فى الغد • وعلمت بعد ذلك أنها ذهبت الى دوبرونرانوف ، والى موزير ، حاملةً معطفها الخلق البالى ، ولكن هذين المراهبين لا يقبلان الا الذهب رهناً ، فلم يحمّلا نفسيهما حتى عناء اجابتهما • وكنت قبلت منها قبل ذلك حجراً قد يُعدّ من الأحجار الثمينة (وهو حجر لا قيمة له فى الواقع) ، فلما فكرت فيما فعلت دهشت من نفسى وتساءلت : كيف قبلت منها ذلك الحجر رهناً ، أنا الذى لا يقبل الا الذهب والفضة أيضاً ؟ تلكم ، فيما أذكر ، هى الفكرة الثانية التى قامت فى ذهنى تجاهها •

وفى هذه المرة ، أى يوم عودتها من عند موزير ، جاءت تحمل الى " مشرب سيجارة " من خشب العنبر ، وهو شيء قد يحبه هواة ، ولكن ما عسانا نصنع به نحن الذين لا نقبل الا ذهباً ! ولما كان مجيئها الى تلك المرة غداة " العصيان " ، فقد استقبلتها استقبالاً شرساً • والشراسة عندى هى أن أكون خشناً • ومع ذلك لم يسعنى حين نقدتها روبلين الا أن أقول هذه العبارة بشيء من الحلق والغيط : " انما فعلت هذا اكراماً لك ••• ولو عرضت المشرب على موزير لرفضه " • وقد خاطبتها فى هذه الجملة بصيغة الجمع مبرزاً ذلك ابرازاً خاصاً ، قاصداً منه الى غرض معين " أنتويه " • كنت شريراً • فما أسرع ما تخضب وجهها بحمرة شديدة ! أدركت أننى آلمتها • فقلت لنفسى حين خرجت : " هل كان يجوز أن أذلّها من أجل روبلين ؟ " • ولم ألبث أن أجبت عن سؤالى بأننى أحسنت صنعاً ، فأخذت أضحك ، وأفرحنى الأمر كثيراً فى ذلك الحين • ولكن

ذلك لم يصدر عن عاطفة سيئة منى : فقد كنت أخفى فى رأسى نية • ذلكم
كان موقفى الثالث منها •

• • • ومنذ تلك اللحظة انما بدأ الأمر • • طبعى أننى سرعان ما جهدت
أن أعرف تفاصيل حياتها الخاصة • وأخذت انتظر مجيئها نافذ الصبر •
فلما جاءت كلمتها بأدب لم تألفه منى • اننى لا تموزنى الثقافه ، ولا أجهل
آداب السلوك الراقى • لاحظت عندئذ أنها طيبة ، متواضعة ، عذبة •
ومن كان طيباً عذباً لم يملك قدرة كبيرة على المقاومة ، واذا كان لا يستسلم
بسهولة ، فانه لا يعرف كيف يتهرب من المحادثة أو يتملص منها • صحيح
أنه يجب بكلمات مفردة ، ولكنه يجب ، وكلما ازدادت عليه الحاحاً ،
ازداد لك اذعائاً • وعليك أنت انما يقع عبء منعه من الافلات اذا أنت
أحييت ذلك • على أنها لم تشرح لى شيئاً حينذاك • ومن قراءة جريدة
« الصوت » انما عرفت بعد ذلك كل شيء • ان الاعلانات الأخيرة تدل
على أن مواردها نضبت نضوباً تاماً • كانت الاعلانات الأولى أكثر طلاقة •
كانت تقول مثلاً : « معلمة ، مستعدة للسفر ، لتقديم عروض » ؛ ثم صارت
تقول بعد برهة : « تعمل كل شيء ، تعلم ، تصحب الأولاد ، تراقب
أعمال المنزل ، تعنى بمريض ، تحسن الحياطة » ، الى آخر ما هنالك مما هو
معروف جداً • ولقد نشرت هذه الاعلانات مراراً الى أن ساءت حالها كثيراً •
فكان الاعلان الأخير يقول : « لا تطلب راتباً ، تكفى بطعامها أجراً » •
ومع ذلك لم تعثر على عمل ! قررت أن أمتحنها مرةً أخيرة • فأخذت
عدد اليوم من جريدة « الصوت » ، وأريتها اعلاناً جاء فيه : « فتاة يتيمة ،
تبحث عن وظيفة معلمة أو مربية لأولاد صغار ، تفضل العمل عند أرملة
مسنة قليلاً • وتعنى بأعمال المنزل » • وقلت لها :

— انظرى • هذه نشرت الاعلان فى هذا الصباح وقد تجد عملاً
فى المساء • فى هذه الصورة انما يجب على المرء أن يقدم نفسه •
فتخضب وجهها بالحمرة من جديد ، واشتعلت عيناها ، واستدارت ،

وخرجت فوراً • سر نى ذلك كثيراً • وكان رأى فى تلك اللحظة قد استقر وترسخ على كل حال ، وكنت مطمئناً هادئ البال غير خائف : لا أحد سيقبل أن يرهن « مشرب السيجارة » ، حتى أن « مشرب السيجارة » نفسه لم يبق لها • ولم يخطئ ظنى • فهامى ذى تأتى غداة غد وقد لاح فى وجهها شقاء كبير ، واضطراب شديد • فقدّرت أن شيئاً ما قد حدث لها فى البيت • ولم يخطئ تقديرى • سأحكى لكم بعد قليل ما حدث • أما الآن فان همى منصرف الى تجميع ذكرياتى • لقد بلغت فى معاملتها غاية اللطف والكماسة ، فسرعان ما كبرت فى نظرها • تلكم هى الحطة التى رسمتها • وكان ذلك بسبب الأيقونة • (لقد عزمت أمرها أخيراً على أن تجيء بها لترهنها) • آه • • • اسمعوا ! اسمعوا ! الآن يبدأ الأمر • أما قبل ذلك فكنت أخلط بين الأشياء وأرتبك ارتباكاً شديداً • الآن أريد أن أتذكر كل شيء ، أريد أن أتذكر أيسر التفاصيل وأدقّ الجزئيات • اننى أحاول أن أجمع شتات أفكارى فى نقطة ، ثم • • • ثم لا أفصح فى ذلك ولا أظفر بطائل • هناك تلك الأمور الدقيقة اليسيرة ! آه • • • انها أمور دقيقة جداً ، يسيرة جداً • • •

كانت الأيقونة صورة للعذراء ، العذراء مع ابنها يسوع • هى أيقونة قديمة يغطيها غطاء من فضة مطلية بذهب • لاحظت أن هذه الأيقونة عزيزة على نفسها • وهى مع ذلك تجيء بالأيقونة لترهنها كاملة دون أن تنزع عنها المعدن الذى يغطيها • قلت لها : « الأفضل أن تنزعى المعدن ، وأن تأخذى الأيقونة • ان الأيقونة شيء لطيف سريع العطب » • قالت :

— هل يحظر عليك أن تفعل هذا ؟

— لا ، ليس الأمر أمر حظر • ولكن لعلك تدركين أنت نفسك

أن • • •

- فانزع اذن ...

قلت بعد تفكير :

- لا • اعلمى اننى لن انزع المعدن • بل أضع الأيقونة كلها هناك ،
فى المشكاة ، مع سائر الأيقونات الموضوعة تحت السراج (كنت فى كل
صباح أشعل أحسن سراج عندى منذ أن أفتتح المكتب) ، وخذى هذه
العشرة روبلات بلا حرج ولا كلفة •

- لست فى حاجة الى عشرة روبلات • أعطنى خمسة • وسوف
أسترد الأيقونة حتماً •

أضفت أقول بعد أن لاحظت أن عينيها أخذتا ترسلان شرراً
من جديد :

- لا تريدن العشرة روبلات ؟ ان الأيقونة تساوى هذا المبلغ •

فلزمت الصمت • ومددت اليها خمسة روبلات • وقلت :

- لا تحتقرى أحداً ... • أنا أيضاً كنت فى عسر وضيق ، بل كنت
أسوأ حالاً • واذا رأيتنى أزاول الآن هذه المهنة ، فذلك لكثرة ما عانيت
فى حياتى من ألم وعذاب ...

فقاطعتنى تقول وهى تبسم ابتسامة ساخرة :

- فأنت تثار لنفسك اذن من المجتمع ، أليس كذلك ؟

كانت ابتسامتها ساخرة ، ولكن هذه الابتسامة كانت تشتمل فى الحق
على غير قليل من حسن السريرة وسلامة الطوية ، وهى لا تزيد على أن
تشبهنى بسائر زملائى ، فلا يكاد يكون فى كلامها شيء يسوؤنى أو يجرح
شعورى أو يهين كرامتى • ولكننى قلت محدثاً نفسى : « ها ... هانت
ذى أنت ! لقد انكشف طبعك انكشافاً جديداً ! » •

وقلت لها فجأة ، بلهجة نصفها مزاح ونصفها تسمية وسر :

- أنا جزء من ذلك الجزء من الكل ، الذى يريد أن يصنع شراً
فيصنع خيراً !

فما ان سمعت هذا الكلام حتى نظرت الى مستطلعة مدهوشة ،
بكثير من روح الطفولة مع ذلك ، وقالت تسألنى :

- اسمع ... ما هذه الفكرة ؟ من أين أخذتها ؟ يخبل الى أننى
سمعتها قبل الآن فى مكان ما ...

- لا تجهدى نفسك فى التذكر . بهذه الكلمات انما زكى
مفتوفيليس نفسه لفافوست . هل قرأت قصة « فافوست » ؟

- لم أقرأها ... بانتباه كبير .

- أى أنك لم تقرئها البتة . يجب الاعتراف بهذا .

ثم اننى مازلت أُلح فى طرفى شفيتك تلك البسمة الساخرة .
فأرجوك ألا تحكمى علىّ بأننى من فساد الذوق بحيث أردت أن أقدم
الك نفسى فى صورة مفتوفيليس . ان مرابياً يقرض برهن ، يظل
مرابياً يقرض برهن . ذلك أمر نعرفه .

- ما أغرب أمرك ... اننى ما أردت أن أقول لك هذا البتة ...

كانت تريد أن تقول : ما كنت أتوقع أن أجذك رجلاً مثقفاً ، ثم لم
تقله ، ولكن هذا لم يمنعنى من أن أحزر أنها أرادت أن تقوله . وسررت
منها أعظم السرور . وقلت :

- فى جميع الميادين يستطيع المرء أن يصنع خيراً . لا أقول هذا
لأمدح نفسى . فمن الواضح أننى لا أصنع شيئاً من خير ، وربما كنت
أصنع شراً ... ومع ذلك ...

قالت وهى ترمقنى بنظرة سريعة عميقة :

- لا شك أن المرء يستطيع أن يصنع خيراً فى أى ظرف ومن .
أى موقع •

ثم أسرع تردف قولها :

- هذا كلام حق : فى أى ظرف ومن أى موقع •

آه ... اننى أتذكر كل تلك اللحظات ، أتذكر كل تلك اللحظات ! .
ويهمنى أن أضيف الى ذلك أن هذا الشباب ، هذا الشباب الغالى ،
إذا أراد أن يقول شيئاً فيه ذكاء وفيه اقتناع ، لا يعوزه أن يتخذ على الفور
هيئة صريحة جداً ، ساذجة جداً ، وأن تقول لك قسماً وجهه :
« انظر الى قوة الذكاء وشدة العمق فيما أستطيع أن أقوله لك أنا ! » ،
وذلك لا من باب الغرور وحب الظهور كما يفعل أقراننا ، فان المرء يلاحظ
أن هذا الشباب متعلق بما يقوله أشد التعلق ، وأنه يحبه أكبر الحب ،
وأنه يؤمن به أعظم الايمان ، وأنه يحترمه ويعتقد أنه مستعد لأن تحترمه
كما يحترمه • يالها من صراحة ! وبذلك انما يحقق النصر • ما كان
أجمل هذا كله فيها !

اننى أتذكر تذكرًا واضحاً • لم أنس أى شيء ! وحين خرجت
كنت قد عزمت أمرى واتخذت قرارى • ففى ذلك اليوم نفسه مضيت
أتقصي أخبارها ، فعرفت عنها كل ما لم أكن قد عرفت حتى ذلك الوقت ،
وعرفت خفايا قصتها الراهنة • كنت علمت خفايا حياتها الماضية قبل ذلك
من لوكيريا التى كانت خادماً عندهم وكنت قد رشوتها قبل بضعة أيام •
انها خفايا تبلغ من الهول أننى لا أفهم كيف أمكنها أن تظل تضحك كما
ضحكت أمس ، وأن تهتم بأقوال مفستوفيليس ، بينما هى تحيا فريسة
أهوال رهية • ولكنه سن الشباب أيضاً ! وقد فكّرت فيها عندئذ مزهواً
فرحاً ، لأننى رأيت فى ذلك علامة على عظمة نفسها وسمو روحها • حتى

على حافة الهاوية ، تتألق كلمة الشاعر جوته ! ان الشباب سمح كريم دائماً ، حتى فى أخطائه • والحق أننى أقصدها هى ، أقصدها وحدها • والعجيب فى الأمر أننى كنت أكلم نفسى عنها منذ ذلك الوقت وكأنها صارت « لى » ، وأننى أصبحت لا يراودنى شك فى قدرتى وسلطانى • انكم تعرفون مدى المتعة التى يذوقها المرء حين لا يشك •

ولكن ما هذا الذى أفعله ؟ اذا سرت هذا السير ، فمتى أجمع شتات أفكارى ؟ ألا فلأسرع ، فلأسرع • ليس هذا هو الأمر !

طلب الزواج

الحفايا التى عرفتھا عنها سأوجزھا فى كلمات قليلة : لقد مات أبواھا منذ مدة طويلة - منذ ثلاث سنين - فبقيت وحيدةً عند عمّتين لھا شريرتين، بل ان وصفھما بأنھما « شريرتان » ، لا يفیھما حقھما من الذم • ان احدى ھاتین العمّتين أرملة مثقلة بأسرة فلھا ستة أولاد ؛ والثانية - وهى أقصر من الأولى قليلاً - عانس شرسة الطبع مشاكسة • ھما امرأتان سيّتان خيستان كلتاهما • ولقد كان أبو الفتاة موظفاً • كان كاتباً فى دائرة من دوائر الدولة ، لا مورد الا راتبه • ان مستواى أنا أعلى من مستواه على كل حال : فأنا كابتن متقاعد ، خدمت فى فوج مرموق من أفواج الجيش ، وأنتمى الى أسرة نبيلة المحتد ، وأعيش حياة ليس فیھا عوز • أما أنى أقرض بالربا ، فان العمّتين لن تعدما أن تنظرا الى هذا الأمر نظرة استحسان واعجاب • عاشت الفتاة خلال ثلاث سنين عبدةً لعمّتيھا ، ومع ذلك نجحت فى امتحاناتھا بفضل ما بذلت من جهد فى الدراسة رغم ضيق الوقت • نجحت فى امتحاناتھا ، رغم قيامھا بأعمال يومية قاسية فسوةً لا ترحم ، وهذا يدل على أنها تتصف بسمو عقلی وتفوق روحی لا سیل الى الشك فیھما • ولماذا رغبتُ أنا فى أن أتزوج ؟ دعونا مما حدث لى أنا • سوف نرى ذلك فيما بعد ... ولكن الأمر هو هذا • كانت الفتاة تعلم أولاد عمّتها القراءة ، وكانت ترّقع الملابس ، وصارت فى المدة الأخيرة لا تغسل الغسيل فحسب ، بل تغسل أرض الغرف أيضاً ، رغم

ضعف صدرها • وشيئاً فشيئاً أخذت العجوزان تضربانها وتقرعانها بسبب أية لقمة تأكلها • ثم قررتا أن تبيعاها • آه • • • لن أدخل في تفاصيل هذا الحمأ • وهى لم تقصص على كل شئ تفصيلاً الا فيما بعد • لقد كان رجل سمين بقال ينظر اليها ويطلع فيها منذ سنة • وكان قد « قبر » امرأتين حتى ذلك الحين ، فهو يبحث الآن عن ثالثة • لذلك وضعها نصب عينيه ، واتخذها هدفاً يريد الوصول اليه • كان يقول لنفسه : « انها مناسبة مريحة ، فقد ولدت فقيرة ؛ واذا كنت أريد أن أتزوج ، فذلك من أجل الأولاد ، • ذلك أنه كان له أولاد • وأخذ يستعجل الأمر • فباحث العمتين • وكان فى نحو الخمسين من العمر • وكرهته الفتاة ونفرت منه نفوراً رهيباً • فأخذت تنشر اعلانات فى جريدة « الصوت » • ثم انتهلت الى عميتها أن تمهلاها مدة قصيرة يتاح لها فيها أن تفكر • فأمهلتها مدة قصيرة ، مدة قصيرة لا يجوز أن تطول • كانتا تقولان : « نحن نفسنا لا نعرف ماذا نعمل من أجل أن نأكل ، فلسنا نطيق أن يشاركنا لقمتنا فم آخر • » جاء البقال الى دار العجوزين حاملاً رطل حلوى ثمنه خمسون كوبكاً • وكانت الفتاة معه • ناديت لوكيريا من المطبخ ، ورجوتها أن تذهب الى الفتاة فتهمس فى أذنها اننى أنتظرها أمام الباب لأبلغها أمراً مستعجلاً جداً • كنت راضياً عن نفسى كل الرضى مسروراً بها كل السرور • وكنت مسروراً طوال النهار على كل حال •

وهناك ، عند الباب ، بحضور لوكيريا ، بينما كانت مدهوشة من أننى استدعيتها ، ذكرت لها ما كنت أعده سعادةً وشرفاً • • • ولا بد أنها لم تدهش عندئذ من الطريقة التى عمدت اليها ، ولا من قولى لها : « اننى رجل مستقيم ، وقد فكّرت فى جميع ظروف القضية ، وقلّبت الأمر على كل وجوهه ، • والحق أننى لم أكذب حين وصفت لها نفسى بأننى رجل مستقيم • ولكن لا قيمة لهذا • وانما يجب أن أذكر أن كلامى فى مخاطبتها لم يكن مهذباً فحسب ، لم يكن كلام رجل مؤدب فحسب ، وانما كان

يشتمل على أصالة أيضاً • وهذا هو الأمر الأساسى • أهى جريمة أن أعترف ؟ اننى حريص على أن أحكم على نفسى ، وانى لأحكم عليها • فعلىّ اذن أن أقول ما لى وما علىّ • وهذا ما فعلته • ولقد أعدت تذكر ذلك فيما بعد ، فتلذذت كثيراً ، رغم أنه غباء • كاشفتها صراحة حينذاك ، دون أن تخرج ، بأننى أولاً لست صاحب مواهب ، واننى امرؤ أنانى سىء (أتذكر هذا اللفظ ، فلقد أعددتته وأنا فى طريقى الى بيتها ورضيت عنه) ، وان لى فى أغلب الظن جوانب سيئة كثيرة • قلت ذلك كله بنوع من الزهو • ولعلكم تتصورون اللهجة التى قلته بها • لكننى بعد أن ذكرت سيئاتى بصدق ونبل ، لم أغفل طبعاً عن الانتقال الى تعداد حسناتى ، فقلت لها : « اننى أمتاز بكيت وكيت وكيت . . . » • رأيت أنها مرتاعة جداً • ولكننى لم أحاول أن أخفف أو أطفف شيئاً • بالعكس : فاننى حين رأيت خوفها أخذت أقوى النعمة عامداً • قلت لها بغير تخرج اننى لن أبخل عليها بالطعام ، فستأكل عندى ما تشتهى ، أما الفسائين الجميلة وأما المسارح وأما حفلات الرقص ، فلا شىء منها البتة ، الآن على الأقل ، وانما قد أسنح بها فى المستقبل ، حين أكون قد بلغت هدفى • كانت هذه اللهجة القاسية تفتنى فتنة كبيرة • وأضفت أقول بغير الحاح كثير اننى اذا كنت قد اخترت هذه المهنة ، اذا كنت قد فتحت هذا المكتب ، فان ذلك يرجع الى ظرف معين • والحق أننى كان من حقى جداً أن أقول هذا الكلام : فالهدف الذى أشرت اليه قائم فى ذهنى ، والظرف الذى ذكرته قد وقع فصلاً • اسمعوا يا سادتى : ثقوا أننى كنت طوال حياتى أبغض صندوق الاقتراض بالربا أكثر مما يبغضه سائر الناس • لكننى وان يكن مضحكاً وسخيفاً أن يستعمل المرء تعابير معماة أوكد لكم أننى « أثار لنفسى من المجتمع ، • هذا صحيح • هذا هو الحق • وبذلك يكون تندرهما علىّ فى ذلك الصباح يعوزه الانصاف • حتى أنها كانت مستفجرة ضاحكة كما ضحكت فى المرة الأولى لو عبّرت عما يعمل فى نفسى بتلك الألفاظ ذاتها فقلت لها : « نعم اننى أتقم لنفسى من المجتمع » • ولكن

بدا لي فجأة أنني أستطيع أن أكسب خيالها إذا أنا أشرت إشارة متخفية ،
 وقلت جملة سرية معمّاة • ثم انني كنت قد أصبحت في تلك اللحظة
 غير خائف من شيء : كنت أعلم أن البقال الضخم ينقّرُها أكثر مما أنقّرُها
 أنا على كل حال ، وأن وجودي على بابها مادام الأمر كذلك أشبه بوجود
 منقذ أو محرّر • كنت أدرك ذلك ادراكاً تاماً • آه ••• ان الرجل يدرك
 كل ما هو خسة ودناءة أكثر من ادراكه أي شيء آخر • ولكن هل كان
 ذلك خسة ودناءة ؟ كيف يجرؤ المرء أن يحكم على انسان ؟

ألم أكن أحبها حتى منذ ذلك الحين ؟

انتظروا يا سادة ، انني لم أشر بطبيعة الحال أية إشارة الى انني أحسن
 اليها • انني لم أكن آمنٌ عليها • أبداً • بالعكس ، بالعكس : قلت لها :
 « أنا الذي سأكون مديناً لك بالشكر لا أنت • وأنت التي تطوقين عنقي
 بجذعك لا أنا » • بل لقد قلت لها هذا كلمة كلمة • لم أستطع أن أمسك
 عن قوله • ولعل ذلك كان مني حماقة ، لأن شيئاً من الانقباض قد ألمّ
 عندئذ بوجهها • ولكنني حققت ظفراً حاسماً واتصاراً قاطعاً على
 كل حال •

انتظروا • ما دمت قد حرّكت هذا الحمأ كله ، فاسمحوا لي أن أذكر
 لكم آخر حقارة صدرت عني • فحينما كنت واقفاً هناك على العتبة ، كنت
 أجتر هذا الكلام محدثاً نفسي : « انك فارغ الطول مونق القامة ، مثقف ؟
 ثم انك لست دميم الوجه على كل حال ، وليس في هذا أي ادعاء أو تبجح
 أو مباهاة » • ذلك ما كان يدور في رأسي ويجول في خاطري • ولقد
 وافقت على طلبى في ذلك الوقت عند الباب فقالت : « نعم » • وافقت
 طبعاً • ولكن ••• يجب أن أضيف هذه الحقيقة : انها فكرت طويلاً
 وملياً ، هناك عند الباب ، قبل أن تنطق بكلمة « نعم » تلك • حتى لقد
 بلغت من طول التفكير أنني أخذت أنساها : « فماذا ؟ » لم أستطع أن
 أمسك عن القاء هذا السؤال عليها بلهجة خاصة مصطنعة •

وقد بلغ وجهها من التعبير عن شدة الجدل أننى كان يمكن أن أقرأ فيه ما كان يدل عليه وينم عنه ! ولكننى شعرت مع ذلك بخيبة الأمل . قلت أحدث نفسى : « هل يمكن أن تتردد فى التخير بينى وبين صاحب الدكان ؟ » آه . . عندئذ لم أفهم . لم أفهم شيئاً البتة . وأنا حتى الآن ما فهمت من الأمر شيئاً . أتذكر أن لوكيريا ركضت ورائى حين انصرفت ، واستوقفتنى فى الطريق وقالت لى : « جزاك الله خيراً يا سيدى على أنك أخذت آنستنا الطيبة . ولكن لا تجرح شعورها فانها ذات شسم وكبرياء » .

ذات شسم وكبرياء ؟ اننى أحب أولئك اللواتى يتصفن بالشسم والكبرياء . ان اللواتى يتصفن بالشسم والكبرياء يكنّ طيبات عامةً حين . . نعم حين لا يبقى لدى الرجل شك فيما صار له عليهن من نفوذ وسلطان . أهذا حق ؟ أوه ! يا للرجل ما أكبر دناءته ، وما أشد خرافته ! هل كنت راضياً رضا كافياً ؟ هل كنت مغتبطاً باعتباطاً كافياً ؟ وحين أخذت تفكر أمام الباب طويلاً و ملياً لتقول لى « نعم » ، وكنت أنا مدهوشاً من ذلك ، ألا يجوز أن يكون تفكيرها وقتئذ هو ما يلى : « شقاء فوق شقاء ، أفلا يحسن أن أختار الرجل الأسوأ ، أى صاحب الدكان ، ففى أن يسكر ذات يوم فيبلغ من فرط السكر أن يأخذ يكيل لى الضربات تلو الضربات الى أن أموت ؟ » آه . . ما رأيكم ؟ هل يجوز أن تكون هذه الفكرة هى التى دارت فى خلدنا حينذاك ؟

نعم ، واننى الى هذا اليوم لا أفهم ، لا أفهم من الأمر شيئاً . قلت منذ لحظة ان من الجائز أن تكون قد راودتها هذه الفكرة : أن تختار الأسوأ ، أى أن تختار البقال . . ولكن أينما كان فى نظرها هو الأسوأ ، أنا أم البقال ؟ البقال أم المرابى الذى يستطيع أن يستشهد بالشاعر

جوته ؟ ذلكم سؤال آخر • أى سؤال ؟ هيه ، ماذا ؟ أما زلت لا تفهم ؟
 انك لتتكلم عن السؤال بينما الجواب على مائدتك أمامك ! ولست أهتم بأمرى
 أنا على كل حال • ولكن ماذا حقاً ؟ هل اهتمامى منصرف الى نفسى أم هو
 منصرف الى آخر ؟ ذلكم ما يستحيل على أن أقطع فيه برأى جازم • ان
 الأفضل أن أضطجع وأنا • اننى أحس بصداع •

الربيع والجمال وهو نفسه لا يصير من الالوهة شيئاً

لم أستطع أن أنام • وأين لي أن أنام ! كنت أشعر بمطرقة تسقط على جمجمتي ضرباً • أود لو أستطيع أن أعود هذا كله ، أن آلف هذا الوحل كله • آه • • • الوحل ! يا للوحل الذي أخرجتها منه ! كان ينبغي لها أن تفهم ذلك ، وأن تعرف كيف تقدر عملي حق قدره ! وكان يحلو لي أن استرسل في بعض الأفكار ، منها هذه الفكرة مثلاً : ان مني واحد وثلاثون عاماً ، ولا تتجاوز سنّها هي ستّ عشرة سنة • ما كان أعظم افتتاني بذلك ! ان هذا الاحساس بعدم التوازن والتكافؤ شيء لذيذ ، لذيذ جداً •

وقد تمنيت مثلاً أن نحتفل بزفافنا ، على الطريقة الانجليزية ، ، أي ألا يكون في حفلة القران الا نحن والشاهدان اللذان لا بد منهما ، واللذان يمكن أن نجعل لوكيرنا أحدهما • ثم نركب القطار فوراً ، فنسافر ولو الى موسكو (وكان لي بموسكو عمل يجب أن أنجزه) ، وننزل أحد الفنادق فنمكث فيه أسبوعاً أو أسبوعين ولكنها اعترضت على هذه الفكرة ، ورفضتها ، واضطرت أن أذهب الى العمتين أحبيهما وأعبر لهما عن احترامي بحجة أنهما الأسرة التي أخذت الفتاة من بين أحضانها • أذعنت لمشيئتها ، وأدّيت للعمتين واجب الاجلال والتبجيل • حتى لقد وهبت لهمايتين المخلوقتين مائة روبل ، وأضفت الى ذلك وعوداً بذلتها لهما •

وقد فعلت ذلك بدون أن أطلعها عليه طبعاً ، حتى لا يتأذى شعورها من هوان بيئتها . وسرعان ما أبدت العمتان كثيراً من المودة والملاطفة . ونشب خلاف على جهاز العرس : لم يكن عندها ثياب ، ولكنها رفضت أن تشتري ثياباً . ثم أفلحت في أن أفهمها أنها لا يمكن أن تكتفى بالثياب البالية التي عندها ، وقلت لها اننى أنا الذى أتولى أمر جهازها ، والا فمن عسى يتولاه غيرى ! على أن الشيء المهم هو أمرى أنا ! لقد أسرعته أفضى إليها بأفكار شتى كانت قد دارت فى خاطرى ، على الأقل لتتنظر إليها بعين الاعتبار بعض النظر ، ولعلنى نجحت فى هذا وبلغت ما أردت . بل أكثر من ذلك أنها فى البداية ، رغم مقاومتها ، أصبحت تقبل على اقبالا فيه حب ، وتستقبلنى حين عودتى فى المساء استقبالاً زاخراً بالحماسة ، وتأخذ تهذر هذرها البريء ، فتقص على حكاية طفولتها كاملة ، وسنى صباها التى فضتها فى دار أبيها ، وما كانت تعرفه عن أبيها وأمها . لكننى كنت أعرف كيف أصب ماءً بارداً على هذه التشوة وهذا السكر . وتلك كانت فكرتى . كنت أرد على حماسها بصمت ، بصمت متسامح طبعاً . . فما أسرع ما لاحظت هذا التعارض ، وما أسرع ما نظرت الى نظرتها الى لغز مستقلق . وعلى هذه الالغاز انما كنت أبني أنا حساباتى وأعقد آمالى ! بل لعلنى من أجل أن تحلّ هى هذا اللغز المستقلق انما اندفعت الى فعل ما هو سخف واستحالة . عمدت فى أول الأمر الى القسوة . أدخلت القسوة الى بيتى نظاماً ثابتاً . وتمّ هذا من تلقاء نفسه بدون أى جهد . لم يكن ثمة سبيل غير هذا السبيل . ولقد تخيلت هذا النظام فى ظرف مستقل عن ارادتى ، فلا يد لى فيه . دعونا ! لماذا أقدح فى نفسى ؟ لقد كان ثمة نظام حقاً . ولكن اسمعونى : مادام الأمر أمر حكم على انسان ، فيجب ألا يتم الحكم عليه الا مبنياً على معرفة كاملة بالأمر اصغوا الىّ .

من أين أبدأ ؟ ذلك أن البدء صعب جداً . متى أراد المرء أن يبرىء نفسه ، اصطدم بعقبات ولقى صعاباً . اليكم هذا المثال : ان الشباب يحقن

المال • فسرعان ما ألححت على المال ، وجعلت كل شيء رهناً به ، مبنياً عليه •
 وبلغت من شدة الإلحاح أنها غدت تصمت مزيداً من الصمت شيئاً بعد شيء •
 كانت تحمق وتصغى وتتنظر وتسكت • وهذا مثال آخر : ان الشباب
 يحب المروءة والنخوة ، وكانت هي صاحبة مروءة ونخوة ، كانت متقدمة
 الحماسة شديدة الحمية ، ولكنها كانت ضئيلة الحظ من الصبر ، فما ان
 تعارضها حتى يستبد بها شعور الاحتقار • وكنت أنا أحب رحابة الصدر
 وسعة الفكر ، وكنت أحب أن أعلمها هذه الرحابة وهذه السعة ، أليس
 هذا حقاً ؟ سأختار لكم مثلاً مبتدلاً : ما عساني أفعل من أجل أن أشرح
 لطبع كطبعها مسألة الاقتراض بالربا على رهن ؟ لم أواجه المسألة رأساً
 بطبيعة الحال ، والا كنت كمن يستغفرها عن هذا العمل ، وانما أنا عمدت
 الى الزهو ، فتكلمت بما يشبه الصمت • اننى أستاذ بارع فى فن الكلام
 بغير كلام ، فن الكلام بالصمت • كنت طول حياتى أتكلم صامتاً ، وعشت
 فى داخل نفسى كل مأساة صمتى • آه ••• ما كان أشقانى ! انفض عني
 الجميع ، انفضوا عني وهجروني ، دون أن يعلم بذلك أحد فى يوم من
 الأيام • وها هي ذى الصية التى تبلغ من العمر ستة عشر عاماً تتخيل
 فجأة ، بعد أن سمعت عني كلاماً من أشخاص ليسوا شرفاء ، ها هي ذى
 تتخيل أنها تعرف كل شيء ، انها على علم بكل شيء ، فى حين أن سرى
 ظل محبوساً فى قرارة نفسى ، نفس الرجل ! وظللت صامتاً ، صامتاً معها
 خاصة ، الى أن كان أمس • فاذا سألتهمونى لماذا صمت ، قلت لأننى متكبر
 صلف • لقد أردت منها أن تعرف كل شيء بنفسها ، دون أن أقوله أنا لها ،
 ولكن دون أن تعتمد أيضاً على نمائم دنيئة ووشايات خسيصة ، أردت أن
 تحزر من أنا ، وما أنا ، وان تدرك ذلك حق ادراكه • حين استقبلتها فى
 بيتى أردت أن أحظى باعتبارها كاملاً • أردت أن تقف منى موقف
 الضارع المبتهل بسبب ما قلست من آلام ، وكنت أستحق منها هذا الموقف
 فعلاً • آه ••• لقد كنت شديد الكبرياء دائماً ، فاما أن أنال كل شيء واما

ألا أنال شيئاً • ولأننى كرهت دائماً أنصاف الحلول فى أمور السعادة ،
ولأننى أردت دائماً أن أبدو صلب العود قوى الارادة ، انما اضطررت فى
ذلك الأوان أن أعمد الى تلك الطريقة : « عليك أنت أن تحزرى وأن
تقدرى ! » • ذلك أننى - ويجب أن نسلّم بهذا - لو أخذت أشرح لها
الأمر وأقص عليها الحكاية ، وأخذت أتحايل وألتمس منها الاحترام ،
لكنت كمن يسألها صدقة •• ولكن •• ولكن •• ما لى ولهذا الكلام
كله ؟

هذا سخف ! سخف وألف سخف ! المهم أننى شرحت لها فجأة ،
بكلمتين ، من غير رحمة ، نعم من غير رحمة ، (يجب أن الصحّ على ذكر
هذا الخلو من الرحمة) ان المروءة عند الشباب شىء خلىق بالاعجاب ،
ولكنه لا يساوى قرشاً صغيراً • لماذا ؟ لأن اكساب المروءة سهل أشد
السهولة ، لأن المروءة لا تنشأ عن أن المرء عاش ، لأن هذه الأمور هى
« أولى انطباعات الحياة » ان صح التعبير • وانما ينبغى أن ننظر الى الانسان
وهو يضطرب فى جنبات الحياة ويعمل • ان هذه المروءة لا تكلف كثيراً •
وهى ان كلّفت المرء شيئاً فانما تكلفه أن يهب حياته ، وهو لا يحتاج من
أجل هذا الا الى شىء من فرط حرارة الدم وفيض القوة ، وهو ظامئ
الى الجمال أشد الظمأ دائماً ! لا ، ما هذه هى الشجاعة • حاول أن تختار
لنفسك مائرة صعبة ، مائرة لا تحدث جلبه كثيرة ، ولا يكون لها بريق
وتألق ؟ مائرة ترافقها النسيمة والشتيمة ، وتتطلب تضحية كبيرة ،
ولا تؤدى الى أى مجد ؟ مائرة تظهر فيها - أنت الرجل اللامع - بمظهر
الجبان الحقير فى نظر جميع الناس ، مع أنك أشجع أهل الأرض طراً ،
حاول أن تحقق هذه المائرة فترى ألا تعدل عنها وتنكص على عقبيك ؟
أما أنا فأننى لم أزد طوال حياتى على أن أحمل ثقل أعمال كهذه الأعمال •
كانت فى أول الأمر تناقش ، بل تناقش كثيراً ! ثم قررت أن
تصمت ، وأن تصمت صمتاً تاماً • أصبحت تكتفى بأن تحملى حين تسمع

كلامى ، تحملى حملة شديدة وهى تنصت الى أقوالى انصتاً فيه انتباه
 رهيب ! ... و ... مع ذلك ، لمحت فى وجهها ، على حين فجأة ،
 ابتسامة تتم عن أنها لا تصدق ، ابتسامة صامتة ، ساخرة • وكانت تبسم
 هذه الابتسامة حين أدخلتها بيتى •
 صحيح أنها لم يكن لها أى مكان تذهب اليه ...

٤

خط وخط الأخرى

أينا نحن الاثنين بدأ حينذاك ؟

لا أحد • لا أنا ولا هي • لقد بدأ الأمر منذ الخطوة الأولى • قلت قبل الآن اننى أدخلتها بيتى على نية القسوة • ومع ذلك لم ألبث أن رفقت • كنت قد شرحت لها حين كنا خطيين لا أكثر ، أنها سيكون عليها أن تتولى تلقى الأشياء المرهونة وأن تؤدي مبالغ الاقراض ، ولم تعترض فى ذلك الحين (لاحظوا هذا) • وأكثر من ذلك أنها أكبت على العمل بهمة ونشاط • يجب أن أذكر أن البيت والأثاث وكل شيء قد بقى كما كان فى الماضى • هو بيت يتألف من حجرتين : احدهما صالة كبيرة جعلت هى المكتب ؛ والثانية صالة واسعة هى الأخرى جعلناها غرفة نومنا المشتركة • وكان أثاث بيتى ليس فيه شيء من بريق ، حتى ان أثاث مسكن العمتين كان أحسن منه • وفى صالة المكتب انما توجد الايقونات مع السراج ، أى فى الصالة التى فيها صندوق الاقراض • وفى غرفة النوم توجد خزائنى ، وهى تضم عدداً من الكتب ، وحقيبة كنت أحمل مفاتيحها دائماً ؛ ويوجد سرير وموائد وكراس • وكنت قد أبلغت خطيبتى أننا سنقف على طعامنا ، أى على طعامى وطعامها وطعام لوكيريا التى استخدمتها ، روبلاً واحداً فى اليوم ، لا أكثر من ذلك • فلم تعترض بشيء • ولكننى زدت المبلغ من تلقاء نفسى ثلاثين كوبكاً للانفاق على حاجات البيت • وكان هناك المسرح أيضاً • وكنت قد قلت لخطيبتى اننا لن نذهب الى المسرح

أبدًا • لكننى مع ذلك سمحت بأن نذهب الى المسرح مرة كل شهر ،
 وتمّ ذلك على نحو لائق ، فكنا نحجز مقاعد فى مكان حسن من الصالة •
 وكنا نذهب الى المسرح معاً • ذهبنا ثلاث مرات ، فشاهدنا مسرحية
 « سباق السعادة » ومسرحية « الطيور المفردة » فيما أظن • (ولكن
 ما قيمة هذا ؟ لست أهتم بهذا الأمر أى اهتمام !) • كنا نذهب الى المسرح
 صامتين ، ونعود منه صامتتين • لماذا ؟ لماذا التزمنا جانب الصمت منذ أول
 يوم ؟ على أننا لم ينشب بيننا أى شجار فى البداية •

لم تتشاجر فى الآونة الأولى ، ومع ذلك خيم بيننا الصمت • وانى
 لأذكر كيف كانت تختلس النظر الىّ من تحت ، فلما لاحظت ذلك
 اشتد صمتى • حقاً اننى أنا الذى ألححت على الصمت • لقد انفجرت هى
 مرة أو مرتين ، فاندفعت الىّ تريد أن تعانقنى وتقبلنى ، ولكننى استقبلت
 اندفاعها ببرودة وجفاف لأن هذه المظاهر أعراض مرضية هسرية ،
 ولأننى كنت فى حاجة الى سعادة مضمونة مؤكدة يشفعها احترام من جانبها
 وتبجيل • نعم ، وكنت على حق • وكان يعقب الانفجار يوم ملئ
 بالشجار •

أقصد ••• لم يكن ثمة تشاجر بمعنى التشاجر ، وانما كنا نصمت ،
 وكان كل واحد منا يقف من الآخر موقفاً فيه وقاحة ما تنفك تزداد •
 « تمرد وعصيان » ، ذلك ما كان يحدث • ولكنها لم تكن تحسن التصرف
 فى الأمر والاحتياال عليه • نعم ، كان ذلك الوجه العذب يتخذ هيئة
 تزداد تعجباً وشراسة شيئاً بعد شيء • حتى لقد أصبحت تنفر منى
 وتكرهنى • هل تصدقون ؟ لقد أتبع لى أن ألاحظ هذا • وكانت تلك
 النوبات تخرجها عن طورها ، لا شك فى ذلك • ولكن حين تخرج
 فتاة من وحل كالوخل الذى كانت فيه ، وحين تتخلص من بؤس كالذى
 الذى كانت تعانيه اذ كانت تغسل بلاط الأرض ، فهل يجوز لها أن تتشكى
 من فقرنا ؟ ولاحظوا أن الأمر لم يكن فقراً بل كان اقتصاداً ، حتى لقد كنا

لا نضنُّ على نفسنا بشيء من الترف إذا وجب الترف : مثال ذلك أنني كنت حريصاً على نظافة الملابس الداخلية • وحتى قبل الزواج كنت أعتقد دائماً أن نظافة الرجل ترضى المرأة • على أنها لم تكن تغضب من الفقر في الواقع ، وإنما كانت تغضب من هذا الذي تراه فيَّ من الحرص على التوفير والاقتصاد في أعقاب الشموع مثلاً • وكانت تقول لنفسها : لابد أن لهذا أسبابه وعمله • انه رجل سيء الطبع ، • وامتنعت فجأة عن الذهاب الى المسرح • وازدادت شدة اللذع في إهسامتها الساخرة • • • وضاعفت الصمت من جهتي •

ألا يجب عليَّ أن أبريء نفسي ؟ ان صندوق الاقراض ذاك هو الذي كان أخطر ما في الأمر • اسمحوا لي : لقد كنت أعلم أن المرأة ، ولا سيما إذا كانت سنُّها ستة عشر عاماً ، لا تملك الا أن تطيع زوجها • ان النساء ليس لهن شخصية • تلك بديهة • ومازلت الى اليوم وحتى في هذه اللحظة أعدها بديهة !

لا قيمة ولا شأن لما هو الآن في الصلاة • ان الحقيقة هي الحقيقة ، وليس يستطيع حتى ستوارت مل أن يكون له في الأمر حيلة ! فالمرأة التي تحب ، نعم ، المرأة التي تحب ، تعشق فيمن تحبه حتى عيوبه وميئاته • وهو مع ذلك لا يطلب كل هذا التسامح من جانبها في حق نقائصه • ذلك منها كرم وسماحة • ولكنه يدل على أنها ليست بذات شخصية • ان افتقاد الشخصية هو ما ضيَّع النساء • أعود فأكرر أنه لا قيمة ولا شأن لما هو الآن في الصلاة ، أعني الجثة المسجاة على المائدة • هل وجود هذه الجثة دليل على قوة الشخصية ؟ لا ، دعوكم من هذا الكلام !

اسمعوا • لقد كنت واثقاً بحبها حينذاك • ألم تكن ترتع على لتعانقني ؟ اذن كانت تحبني ، أو قولوا كانت تريد أن تحبني • نعم ، هذا هو التعبير الصحيح : كانت تريد أن تحب ، كانت تسعى الى أن تحب • والشئ الأساسي هو أنه لم يكن ثمة عيوب من تلك العيوب التي يجب

عليها ان تحاول تبريرها وتسويتها • لعلكم تقولون انى مراب اقراض برهن • والناس جميعاً يكررون هذا • ولكن ما شأن أن أكون مرابياً يقرض برهن ؟ لا شك فى أن هناك أسباباً قد تدفع أكرم انسان الى أن يصحح مرابياً يقرض على رهون • اسمعوا أيها القراء الأصدقاء : هناك أفكار بل هناك فكرة تبدو غبية غباءً رهيباً حين 'ينطق بها' ، أى حين يعبر عنها بالفاظ ، حتى ليستحى صاحبها نفسه منها ، فهى تقع من النفس موقعاً سيئاً ، ويكون لها رنين ردىء يؤذى السمع • ومع ذلك تكون هى الحقيقة ، الحقيقة بعينها ! نعم ، لقد « كان من حقى » أن أخرج من المأزق بفتح مكتب اقراض • « لقد نبذتمونى يا معشر البشر ، أى طردتمونى بصمتكم الذى يفيض ازدراءً » ورددتى على اندفاعى التى كانت تحملنى اليكم باساة لن أنساها فى يوم من الأيام أبداً • فكان من حقى اذن أن أحصى نفسى منكم بجدار ، أن أجمع ثلاثين ألف روبل ، ثم أمضى الى مكان بالقرم على الشاطئ الجنوبى أقضى فيه حياتى على تلال مزروعة بأشجار الكرمة أكون قد اشتريتها بالثلاثين ألف روبل ، فأحيا بعيداً عنكم ، ولكن دون أن أبغضكم ، واحتفظ بمثل الأعلى فى نفسى ، تصحبنى زوجتى مع أولادى اذا رزقنى الله أولاداً ، وأحاول أن أساعد الفلاحين الذين يجاوروننى • • الحق أن من الأفضل أن اعترف لنفسى بكل هذا فى هذه اللحظة • والا فهل يتخيل المرء شيئاً أشد غباوة وحماقة من قصة كهذه القصة أرويها لها بصوت عال ؟ هذا هو السبب فى ذلك الصمت المتكبر الصلف • هذا هو السبب فى أننا كنا نجلس صامتين بغير كلام • ثم ما الذى كان يمكن أن تفهمه من الأمر ؟ ان سنّها ستة عشر عاماً ، فهى فى مطلع الصبا • • • نعم ، ما الذى كان يمكن أن تفهمه من تبريراتى ومن تباريحى وعذاباتى ؟ ان طبعها بسيط ساذج ، وانها جاهلة بالحياة ، وان رأسها فوق ذلك كله مترع بالآراء السهلة التى هى من خصائص الشباب ، وهى تتصف بما تتصف به « النفوس الجميلة » من عماوة •

ثم هي ترى صندوق الاقراض بالربا ولا ترى سواء ! فأنسى لها أن تدرك !
 (ولكن هل كنت مرابطاً جشعاً لا يرحم ؟ ألم تر بنفسها أننى لا أغتنى
 كثيراً ؟) • آه • • • يا للحقيقة ما أشدها هولاً فى هذا العالم ! الحقيقة
 شيء رهيب ! ان تلك اللؤلؤة ، تلك الطفلة العذبة ، كانت طاغية مستبدة ،
 كانت طاغية تسوم نفسى عذاباً لا يطاق • كانت لى جلاداً لا يرحم ! أتظنون
 أننى كنت لا أحبها ؟ من يستطيع أن يزعم أننى كنت لا أحبها ؟ يا لسخرية
 القدر والطبيعة ! ان اللعنة تطارد حياة البشر ، حياة البشر عامة ، وحياتى
 أنا خاصة • اننى أدرك الآن أن هناك أمراً أخطأت فيه التقدير ! ان هناك
 شيئاً لم يحدث كما كان ينبغى أن يحدث • لقد كان كل شيء واضحاً أشد
 الوضوح ، كانت خطتى صافية صفاء النهار : « هو قاس ، صلف ،
 لا تواسيه تعزيات غيره ، فيتألم ويتعذب صامتاً » • كذلك كان الأمر •
 أنا لم أكذب ! لم أكذب ! كنت أقول لنفسى : « لسوف ترى بنفسها أننى
 أصدر عن سمو فى النفس ، وأنها لم تلاحظ ذلك • حتى اذا أدركت ،
 قدرتنى عشرة أضعاف قدرها لى الآن ، وارتمت على التراب ضامة ذراعيها
 ضراعةً وابتهالاً » • تلكم كانت خطتى • ولكتنى نسيت شيئاً ، أو غاب
 عن بصرى شيء • هناك أمر غفلت عن تليته •

كفى ! كفى ! من أستغفر ، وممن أطلب العفو ؟ لقد انتهى كل
 شيء • انتهى كل شيء • أيها الرجل الجسور ، كن متكبراً صلفاً ! لست
 أنت المذنب !

لسوف أقول الحقيقة ؛ لست أخشى أن أقابل الحقيقة وجهاً لوجه :
 انها « هي » ، المذنبه • • • « هي » !

٥

العزبة تَمْدِدُ

بدأت المشاجرات لأنها ارتأت فجأةً أن تدفع للمقترضين ما تشاء هي ، وأن تقدر الأشياء المرهونة بمبالغ تفوق قيمتها كثيراً ، حتى لتعطى المقترض ضعفى قيمة الرهن ، وقررت أن تعاندنى فى هذا . ولقد خالفتها فى رأى . وعندئذ انما تدخلت حكاية امرأة الكابتن . . .

فى ذات يوم جاءت امرأة عجوز هى زوجة كابتن ، جاءت ترهن حلية مى مدية أهداها إليها المرحوم زوجها . . . فهى كما ترون ذكرى . فقدمت إليها قرصاً قدره ثلاثون روبلاً . وقد أخذت المرأة ثمن بصوت شاك طالبةً إلينا أن نحافظ على الحلية . وكنا سنحافظ عليها طبعاً ! ثم اتقضت خمسة أيام فاذا بالمرأة العجوز تعود إلينا لتستبدل الحلية المرهونة بسوار لا تساوى قيمته ثمانية روبلات . فرفضت ذلك طبعاً . ولا بد أنها لاحظت فى نظرة زوجتى شيئاً حينذاك ، فجاءت ذات يوم أثناء غيابى فقبلت زوجتى أن ترد إليها الحلية وأن تأخذ منها السوار .

فلما علمت بالأمر فى ذلك اليوم نفسه ، قلت بضع كلمات مقتضبة ، ولكننى قلت تلك الكلمات بلهجة حازمة من أجل أن أردّها الى الصواب . كانت جالسةً على السرير تنظر الى الأرض وتلامس السجادة بطرف حذاء قدمها اليمنى (وتلك حركة مألوفة فيها) ، وكانت شفتاها تتقلصان بإثسامة ساخرة سيئة . لم أرفع صوتى صائحاً فى تلك المناسبة ، وانما

نَبَّهْتُهَا بِهَدْوٍ إِلَى أَنَّ الْمَالَ « مَالِي أَنَا » ، وَأَنَّ مِنْ حَقِّي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى الْحَيَاةِ
نَظَرَتِي الْخَاصَّةِ ، وَأَنْتَنِي حِينَ دَعَوْتَهَا إِلَى بَيْتِي لَمْ أَخْفِ عَنْهَا شَيْئًا • فَمَا إِنْ
سَمِعَتْ هَذَا الْكَلَامَ حَتَّى وَثَبَتْ وَاقِفَةً عَلَى حِينِ فَجْأَةٍ ، وَأَخَذَتْ تَرْتَجِفُ
وَتَرْتَعِدُ ، بَلْ أَخَذَتْ - مَا رَأَيْكُمْ ؟ - تَضْرِبُ الْأَرْضَ بِقَدَمَيْهَا غَضَبًا وَحَنَقًا •
وَحَشْ كَاسِر • نُوبَةٌ عَصِيَّةٌ ! وَحَشْ كَاسِرَ اعْتَرَتْهُ نُوبَةٌ عَصِيَّةٌ ! ذَهَلْتُ •
لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُ غَضَبَهُ كَهَذِهِ الْغَضَبَةِ أَبَدًا • وَلَكِنِّي لَمْ أَفْقِدْ سَيِّطَرَتِي عَلَى
نَفْسِي ، وَلَمْ أَقُمْ بِأَيَّةِ حَرَكَةٍ ، وَإِنَّمَا أَعْلَنْتُ لَهَا بِذَلِكَ الصَّوْتِ الْهَادِئِ نَفْسَهُ
إِنِّي أَحْظَرُ عَلَيْهَا أَنْ تَشَارَكَ فِي عَمَلِي مِنْذُ الْيَوْمِ • فَانْفَجَرَتْ تَضَحْكُ ،
وَخَرَجَتْ مِنَ الْمَسْكَنِ •

الْوَاقِعُ أَنَّهُمَا لَمْ يَكُنْ مِنْ حَقِّهَا أَنْ تَتْرَكَ بَيْتَ الزَّوْجِيَّةِ • وَلَقَدْ اتَّفَقَ
رَأْيُنَا مِنْذُ الْخُطُوبَةِ عَلَى أَلَّا تَذْهَبَ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ إِلَّا بِصَحْبَتِي •
وَعَادَتْ فِي الْمَسَاءِ • وَلَمْ أَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ •

وَخَرَجْتُ فِي الْغَدِ ، وَخَرَجْتُ فِي غَدَاةِ الْغَدِ • فَأَغْلَقْتُ مَكْتَبِي ،
وَمَضَيْتُ إِلَى بَيْتِ عَمَّتَيْهَا • كُنْتُ قَدْ قَطَعْتُ جَمِيعَ عِلَاقَاتِي بِهِمَا مِنْذُ يَوْمِ
زَوَاجِنَا : فَلَا هُمَا تَأْتِيَانِ إِلَيَّ ، وَلَا أَنَا أَذْهَبُ إِلَيْهِمَا فَعَلِمْتُ هُنَاكَ أَنَّهُمَا لَمْ
تَجِئَا إِلَى عَمَّتَيْهَا • وَقَدْ أَصَغَتْ الْعَمَتَانِ إِلَى مُسْتَطَلْعَتَيْنِ ، بَلْ لَمْ يَفْتَهُمَا أَنْ
تَضْحَكَا عَلَيَّ ، وَقَالَتَا لِي : « مُسْتَحَقٌّ ! » • وَلَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُ أَنْ تَسْتَهْزِئَا بِي
وَتَتَهَكَّمَا عَلَيَّ • وَلَكِنِّي رَشَوْتُ أَحَدَهُمَا - وَهِيَ الْعَانِسُ - بِمِائَةِ رُوبِلٍ
دَفَعْتُ لَهَا مِنْهَا خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ رُوبِلًا عَلَى الْحَسَابِ • فَمَا انْقَضَى يَوْمَانِ
حَتَّى جَاءَتْنِي الْعَمَةُ الْعَانِسُ تَقُولُ لِي : « إِنْ لَضَابِطَ مِنَ الضَّبَاطِ هُوَ اللَّيْوَتَانِ
يَافِيمُوفْتَشِ الَّذِي كَانَ أَحَدَ رِفَاقِكَ فِي الْجَيْشِ ضَلَعًا فِي الْأَمْرِ ، • صَعَقَنِي
هَذَا الْكَلَامُ صَعَقًا • إِنْ يَافِيمُوفُ هَذَا هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي أَلْحَقَ بِي الْأَذَى
وَالضَّرَرَ فِي الْجَيْشِ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَخْصٍ آخَرَ • وَقَدْ تَجَاسَرَ مِنْذُ شَهْرٍ
فَجَاءَ إِلَى مَكْتَبِي مَرَّتَيْنِ بِحُجَّةٍ أَنَّهُ يَرِيدُ إِيدَاعَ رَهْنٍ وَاقْتِرَاضَ مَالٍ • وَإِنِّي
لَا تُذَكِّرُ أَيْضًا أَنَّهُ أَخَذَ يَمَازِحَ زَوْجَتِي • فَاقْتَرَبَتْ مِنْهُ وَأَمَرَتْهُ بِالْأَتَطْلَأِ

قدماء بيتى بعد الآن بحكم طبيعة العلاقات التى بيننا • ولكن لم تساورنى أية شبهة ولم يخامرني أى ظن ؛ وكل ما انصرف اليه ذهني أن الرجل سيء الخلق قليل الحياء • ولكن هاهي ذى العمة تنبئني الآن أنهما قد تواعدا ، وأن مدبرة هذه المكيدة امرأة كانت فى الماضى من صاحبات العمتين ، وهى أرملة اسمها جوليا ماسونوفنا كان زوجها كولونيلا • وقالت لى العمة العانس : « اليها انما تذهب الآن زوجتك » •

لا داعى الى سرد التفاصيل • حسبى أن أذكر أنني خُصِّيت ثلاثمائة روبل ، ولكنني توصلت بعد يومين الى تدبير كل شيء على النحو الذى يكفل لى أن أكون فى الغرفة المجاورة للغرفة التى سيختلئ فيها يافيموف بامرأتى لأول مرة ، فأتنصت عليهما • وقبل أن يحين الموعد بيوم ، حدث بينى وبين زوجتى شجار قصير كان لابد أن يبدو لى بليغ الدلالة •

لقد رجعت الى البيت فى نحو المساء ، فجلست على حافة السرير ، ونظرت الى ساهرةً بينما هى تضرب السجادة بنعل حذاءها • فاذا أنا يخطر ببالي على حين فجأة وقد وقع بصرى عليها أنها قد أصبحت فى هذا الشهر غير ما كانت ، حتى لقد أصبحت نقيض ذاتها • فهى الآن شديدة الحق ، وشرسة الخلق كثيرة التعدى ، ولا أقول وقحة ، وانما أقول مضطربة زاحرة بروح التمرد • وكانت هى تحاول أن تستثير فى نفسها روح التمرد هذه • ومع ذلك كانت عنوبتها ورقتها ودمائها تمنعها من الانقياد للتمرد • ان المرأة العذبة الرقيقة الدثة مهما تتجاوز الحدود فى انتقالها من الدمثة الى التمرد ، يظل يحس المرء أن طبيعتها ليست هى هذه الطبيعة ، وانما هى تكره نفسها على العصيان اكراهاً ، ولا تفلح أبداً فى التغلب على كل خفر وكل تحفظ • وهذا النوع من المزايا هو الذى يحثّر الخصم ويفل سلاحه أكثر من سائر المزايا ، لأنه يجمله هو نفسه متردداً فى تصديق ما تراه عيناه • ولا كذلك النفس الداعرة الفاجرة ، فانها تستطيع دائماً أن

تكون أكثر قصداً واعتدالاً ، وتعرف كيف توغل في الدنائة مستقرة
بمظهر الأدب والحشمة ، فتُضِلُّك بذلك عن نفسها وتخدعك •

كسرت امرأتى الجليد فجأةً فقالت تسألنى ملتمة العينين :

– هل صحيح أنك طردت من الجيش لأنك خفت من الاقتتال
فى مبارزة ؟

– صحيح • رجيت أن أترك الجيش بطلب من الضباط ، رغم أننى
قدمت طلب تسريحى قبل ذلك •

– أطر دوك اذن بسبب جبنك ؟

– نعم ، عدُّوا ذلك منى جبناً • والواقع اننى لم أرفض المبارزة
جبناً ، وانما رفضتها لأننى لم أشأ أن أخضع لحكمهم الباغى المستبد ،
فأدعو الى المبارزة على اعتقادى بأننى لم تنلنى اهانة •

ولم أستطع أن أكظم غيظى فأردفت أقول لها :

– هل تعلمين أن مقاومة هذا الاستبداد الباغى ورفض ما يترتب
عليه من نتائج دليل على شجاعة أكبر كثيراً من شجاعة الاقتتال فى أية
مبارزة ؟

لم أستطع أن أسيطر على نفسى فأمسك عن اطلاق هذه الجملة ،
فكأننى أردت بذلك أن أبرر سلوكى • وهذا بعينه هو كل ما كانت تريد :
أعنى هذه المذلة الجديدة من جانبى • فاذا هى تضحك ضحكة كاسرة •
وأردفت تسأل :

– وهل صحيح أنك كنت بعد ثلاث سنين تتشرد فى شوارع
بترسبرج ، وتستعطى الصدقات ، وتنام ليلك على موائد البلياردو •

– وكنت أناام أيضاً فى « سوق العلف » بمنزل فيازمسكى • هذا

صحيح : فبعد خروجي من الجيش عشت فترة طويلة من الحزى والعار ،
والفاقة والبؤس ، ولكن أخلاقى لم تسقط ، لأننى كنت أول من يأسف
لما يصدر عنى من أعمال • لقد كان بؤسى بؤس ارادة وعقل ، ولم يكن
لهذا البؤس من مصدر الا ما كنت فيه من حالة اليأس الشديد • ولكن
هذا أمر مضى وانقضى ...

- آ ... طبعاً ! أنت الآن شخص مرموق ، أنت الآن من رجال
المال !

وكان ذلك اشارةً منها الى أننى مراب طبعاً • ولكننى استطعت أن
أسيطر على نفسى وأن أتحكم بسلوكى • لقد رأيت أنها شديدة الرغبة
فى أن تحصل منى على ايضاحات يمكن أن تخفض قدرى وتهبط بقيمتى •
لذلك حاذرت أن أقول لها شيئاً • وواتانى الحظ فدىّ الجرس زبون
فمضيت الى الصالة للقاءه • وبعد ساعة ، بينما أخذت ترتدى ثيابها فجأة
لتخرج ، تسمرت أمامى وقالت لى :

- ذلك لا ينفى أنك لم تحدثنى بشىء من هذا كله قبل زواجنا •
فلم أجبها • وخرجت •

وفى الغد كنت لاطياً فى تلك الغرفة أتنصت عليهما وأنتظر مصيرى
واضعاً مسدسى فى جيبى • كانت هى جالسة بقرب الطاولة ، وكان يافيموف
يتغنج أمامها • فماذا حدث ؟ (ان ما أقوله هنا يشرّفى الى أقصى حد) •
لقد حدث ما كنت توقعته وافترضته دون أن أكون واعياً ذلك التوقع
وذلك الافتراض • لا أدري هل أحسن التعبير ، فأجعلكم تفهمون ما أريد
أن أقول •

اليكم ما حدث • لقد ظللت أنصت ساعة كاملة ، فشهدت خلال هذه
الساعة مبارزة بين أنبل وأشرف امرأة وبين مخلوق حقير متصنع فاسق
خسيس النفس نذل • قلت أسائل نفسى مدهوشاً مذهولاً ! • كيف تعلمت

هذه المرأة الساذجة ، هذه المرأة العذبة ، هذه المرأة التي لا تتكلم الا قليلاً جداً ، كيف تعلمت هذا كله ؟ ان أبرع كاتب من كتاب المسرحيات الهزلية لا يستطيع أن يتفقق خياله عن مشهد فيه مثل هذه السخريات وهذا الضحك ، عن مشهد تبعث فيه الفضيحة أبداع العبث بالرديلة ، وتحتقرها أحسن الاحتقار . ما كان أحذقها في حديثها ، وحتى في أيسر ألقاظها ، وما كان أرهف ذكاءها في أجوبتها السريعة ، وما كان أصوب أحكامها في آرائها السديدة ! . وكانت في الوقت تدل على براءة بكر وسذاجة عذراء . كانت تضحك أشد الضحك من تصريحه بجهه ، ومن حركانه وإشاراته ، ومما يقدمه لها من عروض . لقد جاء الى هذا المكان وهو ينتوى أن يعمد الى هجوم مباغت ، وكان لا يتصور أن يصطدم بمقاومة ، فاذا بظنونه كلها تذهب ببداء . كان يمكن أن أفترض في أول الأمر أن ذلك لم يكن منها الا دلالاً هو دلال امرأة لا يعوزها الذكاء في فجورها ولا تنقصها الفكاهة في خلاعتها ، فهي تحب أن تبديهما وتظهرهما معترزةً بهما . ولكن لا . لقد كانت الحقيقة تسطح سطوع الشمس . فلا سبيل الى الشك فيها . كل ما في الأمر أنها من بغضها لي ، وهو بغض متصنع مرئيه الى الحق والغيط ، قد أمكنها لقله خبرتها أن تدبر أمر هذا اللقاء . ولكن ما ان حان حين الانتقال الى الفعل حتى انفتحت عيناها على الفور . كانت تريد أن تهينني بجميع الوسائل ، ولكنها رغم أنها قررت أن تتدحرج في الوحل لم تحتمل رؤية مثل هذا الفساد . ثم هل يستطيع رجل مثل يافيموف أو أى شخص سخييف تافه من نوعه أن يفتنها هي البريئة الطاهرة التي تسعى الى مثل أعلى ؟ بالعكس : ما كان لرجل مثله الا أن يثير فيها الضحك . كانت الحقيقة كلها تعصى وتمرد في نفسها ، وكان الغضب يجعلها ساخرة متهمكة . أعود فأقول ان هذا الشخص السخييف المضحك قد شده من ذلك شدهاً شديداً ، وجلس في آخر الأمر كالحال الهيئة متجههم الوجه لا يكاد يجيب عن أسئلتها ، حتى لقد بدأت أخشى أن يأخذ

بشتمها ارضاءً لحقده الدنيء • وأعود فأكرر مرةً أخرى أن رؤيتي هذا
 المشهد بغير دهشة أمر يشرّفتني ، لقد كنت كمن التقى بوجه يعرفه بعد أن
 غاب عنه زمناً ، وتعمّد أن يجيء الآن ليلقاه • لقد جئت وأنا لا أعرف
 شيئاً ، ولا أحمل في نفسي أى اتهام ، رغم تسلحي بمسدس في جيبى •
 تلکم هي الحقيقة • وهل كان يمكن أن أتخيل أن يكون الأمر غير ذلك ؟
 لماذا كنت قد أحيتها ؟ لماذا كنت قد قدرت قيمتها ؟ لماذا كنت قد تزوجتها ؟
 صحيح أنني كنت مقتنعا أشد الاقتناع بكرهها لي ، ولكنني كنت مقتنعا
 كذلك ببراءتها وطهارتها •

هأنذا أنهى المشهد ، فأفتح الباب فجأة ، وأدخل عليهما • انتفض
 يافيموف • وأمسكت يدها ودعوتها أن تخرج معي • وثاب الى يافيموف
 رشده ، فانفجر يضحك على حين فجأة ضحكاً مجلجلاً متدفقاً ، وقال :

– آ ••• خذها ، خذها ، لا اعتراض لي على قداسة الواجبات
 الزوجية •

وصاح يقول ورائي :

– واعلم أنني رهن اشارتك ، رغم أنه لا يسع رجلاً شريفاً أن
 يبارزك دون أن يخفض قدره ، ويفقد حشمته ••• هذا اذا كان لك من
 الشجاعة ما يدفعك الى طلب المبارزة •••

قلت لزوجتي وأنا أجبرها على التوقف لحظةً في العتبة :

– سمعت ؟

ثم لم أقل لها كلمة واحدة طوال الطريق الى أن بلغنا بيتنا • وكنت
 قد قبضت على ذراعها ، فلم تبد أية مقاومة • حتى لقد كانت مشدوهة
 مذهولة • غير أن ذلك لم يطل كثيراً ، فما ان وصلنا الى البيت ودخلنا حتى

جلست على كرسى ، وأخذت تحدجنى بنظرة ملحة • كانت شاحبة اللون شحوباً رهيباً • ورغم أن شفيتها قد عادت اليهما ابتسامتهما الساخرة فوراً ، فإن نظرتها كانت تتحدانى تحدياً يحمل معنى الانتصار ؛ وأظن أنها لبثت عدة دقائق موقنةً بأننى سأقتلها برصاصة مسدس • ولكننى أخرجت سلاحى من جيبي بهدوء ، ووضعت على المائدة • (لاحظوا أن هذا المسدس مألوف لها ، وأننى لقمته منذ فتحت مكتبى ، اذ كنت قد قررت حين فتحت هذا المكتب أن أستغنى عن كلب حراسة وعن خادم قوى الجسم شديد البأس كما يفعل موزير • وكانت الطباخة عندى هى التى تفتح الباب للزبائن • ولكن يستحيل على من يتعاطون مهنتنا ألا يتخذوا احتياطاتهم ، فمن باب الاحتياط لكل طارئ انما اقتنيت هذا المسدس وجعلته ملقوماً على الدوام • وقد اهتمت هى نفسها اهتماماً كبيراً بهذا المسدس فى الآونة الأولى من دخولها بيتى ، وسألتنى عن أجزائه واستعماله ، حتى لقد أقنعتها ذات يوم بأن تسدد الى الهدف وتطلق رصاصة • لاحظوا هذا كله) • واستلقيت على سريرى دون أن أخلع الا نصف ثيابى ، ودون ان أنبه الى ما كانت تعبر عنه هيئتها من دهشة • كانت الساعة هى الحادية عشرة تقريباً • وظلت فى مكانها ساكنةً جامدة زهاء ساعة • ثم أطفأت الشمعة ، واضطجعت على الديوان بدون أن تخلع ثيابها هى أيضاً ، متجهةً بوجهها الى الحائط • تلك أول مرة لا نرقد فيها على سرير واحد • لاحظوا هذا أيضاً •

٦

ذكرى فظيعة

هنا مكان ذكرى فظيعة ...

استيقظت صباحاً فى نحو الساعة الثامنة فيما أظن ، وكانت الغرفة قد غمرها الضوء تقريباً • استيقظت دفعة واحدة ، واعياً كل الوعى صباحياً كل الصحو ، وفتحت عيني فجأة ، فرأيتها واقفة بقرب المائدة ، ممسكةً المسدس بين يديها • لم تترأنى استيقظت وأنتى كنت أنظر اليها • ورأيتها تقبل على بغتةً والمسدس بيدها • فأغمضت عيني فوراً ، وتظاهرت بأننى نائم نوماً عميقاً •

وصلت الى سريري ، ومالت على • وكنت أسمع كل شئ • ورغم أن صمتاً كصمت الموت خيم ، فقد كنت أسمع هذا الصمت • وحدثت عندئذ حركة متشنجة جعلتني أفتح عيني مرة ثانية على حين فجأة • فنظرت محدقةً الى عيني بنظرة ثابتة ، بينما استقرت فوهة المسدس على صدغى • التقى بصرانا • ولكننا لم ينظر أحدهما الى الآخر الا لحظة واحدة • وأجبرت نفسى على أن أعود الى الانغماض ، واستجمعت شتات فكرى ، فعملت جاهداً على ألا أتحرك البتة ، وعلى ألا أعود الى فتح عيني مهما يحدث من أمر •

انه ليحدث فعلاً أن يكون امرؤ نائماً نوماً عميقاً ، فاذا هو يفتح عينيه فجأةً ، أو حتى ينهض رأسه لحظةً وينظر حواليه ، ثم اذا هو

يهوى برأسه على المخدة بعد لحظة واحدة بدون شعور وينام من غير أن يتذكر شيئاً •

اننى بعد أن التقى بصرى ببصرها وأحسست بفوهة المسدس على صدغى ، قد أغمضت عينيّ فجأة ، ولم أتحرك بعد ذلك البتة ، فكأنتى كنت نائماً نوماً عميقاً ، وكان فى امكانها أن تفترض أننى كنت نائماً بالفعل وأننى لم أبصر شيئاً ، ولا سيما أن اغماضى عينيّ بعد أن رأيت الأمر يكون شيئاً لا يعقل ان يحدث ، أو لا يحتمل أن يقع ...

نعم ، لا ' يعقل أن يحدث ، لا يحتمل أن يقع • ولكنها مع ذلك استطاعت أن تحزر الحقيقة • خطرت هذه الفكرة فى ذهنى كالبرق • آه ... يا لزوجة الأفكار والاحساسات التى عصفت فى نفسى ابان لحظة واحدة ! ان علينا أن نعجب أشد الاعجاب بهذه الكهرباء فى فكر الانسان • وأحسست فى تلك اللحظة أنها اذا حزرت الحقيقة وعرفت أننى غير نائم ، فلا بد أن يكون رضى بالموت قد سحقها سحقاً ، ولعل يدها قد أخذت ترتجف • ولعل صدمة هذا الشعور الجديد الحارق قد حطمت ما كانت قد اتخذت من قرار • يقال ان الذين يقفون على ذروة عالية يحسون من تلقاء أنفسهم بانجذاب الى الهاوية • وأحسب أن كثيراً من حوادث الانتحار وجرائم القتل لم تقع الا لأن المسدس كان فى اليد • ثمة هوة هنا أيضاً ، ثمة انحدار مقداره خمس وأربعون درجة لا يملك المرء حين يحاذيه الا أن ينزلق الى تحت • ان نداءً لا يقاوم ولا يغالب يهيب بنا أن نضغط على الزناد • ولكن شعورها بأننى رأيت كل شىء ، وأننى أعلم كل شىء ، واننى أنتظر صامتاً أن تأتىنى منها الضربة القاتلة ، كان يمكن أن تعصمها من الانزلاق •

وطال الصمت • وأحسست على صدغى وعلى شعرى ببرودة ملمس الحديد • قد تسألوننى هل كنت آمل أملاً جازماً قاطعاً فى أن أنجو مرة أخرى • فاعلموا - والله على ما أقول شهيد - أننى كنت قد فقدت

كل أمل ، أو لو يكن أمل يزد على واحد من مائة • فلماذا ارتضيت ان أموت ؟ انى لأسألكم : ما عسى تكون قيمة الحياة فى نظرى بعد المسدس الذى صوّبه الىّ انسان أعبد عبادته ؟ ثم اننى كنت أعرف معرفة لا يتسرب اليها الشك ان صراعاً قد نشب بيننا فى تلك اللحظة ، صراعاً هو مبارزة ضارية تنتهى بالحياة أو بالموت ، مبارزة من نوع المبارزة التى حضنتى عليها رفاقى فى الماضى ، ثم طردونى لأعراضى عنها جنباً • كنت أعلم ذلك ، وكانت هى تعلمه • هذا اذا صحّ أنها حررت أننى لم أكن نائماً •

ومن الجائز ألا يكون شيء من هذا قد جرى ، من الجائز ألا أكون قد فكرت حينذاك فى ذلك كله ، ولكن أغلب الظن أن يكون هذا هو ما جرى ، لآتى منذ ذلك الحين لم أنقطع عن التفكير فيه لحظة فى ساعه من حياتى •

ولكن قد تسألوننى أيضاً : • لماذا لم تمنعها من اقتراف جرم فظيع ؟ ، • فاعلموا أن هذا هو السؤال الذى ألقيته على نفسى ألف مرة فيما بعد حين كنت أتذكر تلك اللحظة فتسرى فى ظهري رعدة • لقد كانت نفسى ممثلة حينذاك بياس مظلم : كنت أنا نفسى هالكا ، فمن ذا الذى كان فى وسعى أن أنقذه ؟ ثم ما أدراكم ! هل كنت أحرص فعلاً على أن أنقذ أحداً فى تلك اللحظة ؟ من ذا يعلم ما الذى كنت أحسه ؟

ولكن شعورى كان مع ذلك يقطأ • ومرّت الثوانى ، وران صمت كصمت الموت • ولا تزال هى مائلة علىّ • ثم اذا أنا أرتعش أملاً • فأفتح عينيّ • فأرى أنها كانت قد غادرت الغرفة • نهضت عن سريري • وخرجت منتصراً غالباً ، بينما أصبحت هى منهزمة مغلوبة الى الأبد •

مضيت أجلس بقرب السماور • كان الشاي يشرب عندنا دائماً فى الغرفة الأولى ، وكانت زوجتى هى التى تصبّه • جلست صامتاً ، وتناولت من يديها كأس الشاي • وألقيت عليها نظرة بعد خمس دقائق • كانت

شاحبة شحوباً رهيباً مخيفاً ، كان شحوبها الآن أشد من شحوبها بالأمس •
وكانت تنتظر الى • فلما لاحظت نظرتي اليها اذا بشفتيها اللتين زال عنهما
لونهما تلم^٢ بهما ابتسامة باهتة ، واذا بعينيها تعبران عن سؤال • قلت
لنفسى : « معنى هذا أنها لا تزال تشك وتتساءل : أيعلم أم لا يعلم •
أراى أم أنه ما راى ؟ » • أشحت نظرى مصطنعاً قلة الاهتمام • حتى اذا
فرغنا من الشاى ، أغلقت المكتب ، ومضيت الى السوق فاشتريت سريراً
من حديد ، وحاجزاً • ورجعت الى البيت ، فوضعت السرير فى الصالة
وراء الحاجز • انه سرير لها ، ولكننى لم أقل لها عن ذلك كلمة واحدة •
فأدركت هى من وجود هذا السرير • أنتى رأيت كل شىء ، وعلمت كل
شىء • ما فى ذلك ريب • وفى تلك الليلة تركت المسدس على المائدة
كعادتى فى كل ليلة • ووقدت هى صامتة على سريرها الجديد : لقد انحل
الزواج • « وغلبت هى لكنها لم 'يفغر لها » • وانتابها فى تلك الليلة
هذيان • وظهر فى الصباح أنها أصيبت بحمى حارة • فبقيت راقدة ستة
أسابيع •

الفصل الثاني

١

حلم خيلاء وصلف

أبلغتني لوكيريا منذ قليل أنها لن تبقى عندي ، وأنها ستمضي متى تمّ دفن مولاتها • فركعت على ركبتيّ وصليت خمس دقائق • كنت أريد أن أصلى ساعة ، ولكنني لم أزد على أن أفكّر ثم أفكر مريض العقل مريض الرأس ؛ وما فائدة الصلاة والنفس غارقة كلها في الائم ؟ والشئ العجيب أنني لم أشعر برغبة في النوم أيضاً • ان المرء حين يعاني حزناً كبيراً ، حين يكابد كرباً هائلاً بعد العنف الشديد في الانفجارات الأولى ، لا يشتهي الا أن ينام • يقال ان المحكوم عليهم بالاعدام ينامون نوماً عميقاً أشد العمق في ليلتهم الأخيرة • ولا بد أن يكون الأمر كذلك ، فهذا يوافق الطبيعة ، والا لما استطاعت قوى الانسان أن تصمد •••

اضطجعت على الديوان ، ولكنني لم أستطع أن أغمض عيني •

••• أثناء مرضها الذي دام ستة أسابيع كنا تتناوب القيام عليها نهائياً وليلاً أنا ولوكيريا وممرضة محترفة جثت بها من المستشفى • لم أحفل بالنفقات • حتى لقد كنت لا أشد الا أن أنفق من أجلها • واستدعيت الدكتور شرودر ، ودفعت له أجراً قدره عشرة روبلات • وحين عاد إليها وعيها ، أصبحت لا أظهر لها الا من حين الى حين • ولكن ما حاجتي الى ذكر هذا كله ؟ وظلت خلال مدة النقاهة جالسة في غرفتي قرب مائدة صغيرة كنت قد اشتريتها لها مع السرير في تلك المرة ، وكانت تبقى جالسة

بهذوء لا تنطق بكلمة ... نعم ، كنا نصمت • هذا صحيح • بل قل اتنا قد بدأنا تبادل بعض الكلام ، ولكن أحاديثنا لا تتناول إلا أموراً تافهة مبتذلة • وكنت أتعمد طبعاً ألا أبتعد فى كلامى عن هذه الأمور المبتذلة • وكنت ألاحظ أنها راضية عن هذا التحفظ • كنت أقول لنفسى : « انها مهتزة أشد الاهتزاز ، مهتمة أكبر التهديم ، فيحسن أن أتبع لها الوقت اللازم للنسيان واسترداد قوتها » • فعلى هذا النحو كنا نلتزم الصمت • ولكننى كنت فى كل لحظة متأهباً لكل ما قد يطرأ • وكنت أقدر أن حالها كحالى ، وكان يعصف بى شغف شديد رهيب بأن أسأله : « ترى فى أى شيء تفكر الآن ؟ » •

سأقول لكم شيئاً آخر • لا يتصور أحد طبعاً مدى ما عانيت من ألم حين كنت أئنُّ وأنتحب أثناء مرضها • ولكننى كنت أنتحب بينى وبين نفسى ، وأكظم أنينى فى صدرى ، وأخفى شكائى حتى عن لوكيريا • وكنت لا أستطيع أن أتصور ، لا أستطيع أن افترض أنها قد تموت دون أن تعلم شيئاً • وانى لأتذكر أننى حين زال عنها الخطر وارتدت اليها العافية ، قد هدأت نفسى هدوءاً كاملاً بسرعة • وأكثر من ذلك أننى قررت « أن أرجىء مسألة مستقبلنا » ما استطعت أرجاءها ، وأن أدع الأمور على حالتها الراهنة بانتظار أن تنجلي فى المستقبل الذى أرجو أن يبقى بعيداً • نعم ، ان ما يحدث لى فى ذلك الحين كان شيئاً عجيئاً غريباً لا أجد كلمة تصفه إلا أن أقول اننى كنت « أتصر » ، وكان شعورى بهذا الاتصار يبدو لى كافياً كل الكفاية • هكذا انقضى الشتاء كله • آ • • • كنت راضياً مسروراً كما لم أكن راضياً ولا مسروراً فى أى يوم من أيام حياتى حتى ذلك الحين • • • ودام رضائى وسرورى الشتاء كله •

اسمعوا • لقد مرتت فى حياتى بظرف أليم كان الى ذلك اليوم ، أى الى يوم تلك المصيبة التى نزلت بزوجتى ، جائماً على صدرى يخقننى خنقاً فى جميع الأيام ، وفى كل ساعة من ساعات اليوم ، ألا وهو -

باختصار - فقد انى سمعتى وطردي من الجيش • وكان ذلك الأمر ظلماً لى ، ظلماً مليئاً بالطغيان والاستبداد ، وخالياً من الرأفة والرحمة • هناك حقيقة يجب أن أذكرها ، هى أن رفاقى كانوا لا يحبوننى بسبب طبعى الذى كان صعب المراس ، وربما كان باعثاً على الضحك ، وان كان يحدث فى كثير من الأحيان أن ما يبدو لامرئ من الناس رائعاً سامياً ثميناً مجيداً داعياً الى الفخر مشرفاً يمكن أن يحمل على الضحك والقهقهة عصبية بأسرها من الرفاق ، لا تدرى لماذا ولا كيف !

المهم أننى أنا لم أكن محبوباً فى يوم من الأيام ، حتى فى المدرسة • ما أحببى أحد فى أى مكان ولا أى زمان • لوكيريا أيضاً لا تستطيع أن تحببى • ولكن ما وقع لى فى الجيش ، على أنه يرتبط بما يحمله لى رفاقى من عواطف الكره ، انما كان مرئده الى مصادفة صرف • ويهمنى كثيراً أن أكرر أنه لا شىء يسىء الى المرء ولا شىء يفوق طاقة المرء على الاحتمال كأن يضيع ويهلك بمصادفة كان يمكن ألا تحدث ، أو بتضافر عدد من الظروف تضافراً مشثوماً ، وهى ظروف كان يمكن أن تتبدد كالدخان • ذلك فى نظر الانسان الذكى اذلال لا يضارعه اذلال • واليكم تلك المصادفة :

أثناء حضورى مسرحية من المسرحيات ، وفى فترة الاستراحة بين فصلين من فصول المسرحية ، مضيت الى البوفيه لأصيب شيئاً من شراب • فاذا بالضابط « آ • • • وف » ، وهو ضابط فى سلاح الفرسان ، يدخل الى البوفيه بسرعة كسرعة الريح ، ويقول لرفيقين من رفاقه بصوت عالٍ على مرأى ومسمع من الجمهور وأمام ضباط آخرين ، ان قائد فوجنا بينزومتسيف قد أثار فضيحة فى دهاليز المسرح ، وأنه ربما كان ثملاً قد « أخذ السكر منه كل مأخذ » • ولم يتصل الحديث • وكان عدا ذلك خطأ • لأن الكابتن بينزومتسيف لم يكن سكراناً ، ولا كان الأمر الذى حدث خليقاً بأن 'يعد' فضيحة • وجرى الحديث بين ضباط سلاح الفرسان على شىء آخر ،

ووقف الأمر عند هذا الحد • ولكن فوجنا كان فى الغد على علم بالقصة ، وسرعان ما راج أنه لم يكن فى البوفيه أحد من ضباط الفوج غيرى ، واننى لم أحتج على • آ • • • وف ، حين قال ذلك الكلام الوقح عن الكابتن بيزومتسيف ، ولا اتجهت إليه بأى تقريع لأسكته • وفيما كان ينفع الاحتجاج أو التقريع ؟ إذا كان ضابط سلاح الفرسان حاقداً على بيزومتسيف لسبب من الأسباب ، فالقضية تكون قضية شخصية بين الرجلين فلا شأن لى بها ، ولا داعى الى تدخل فىها • ولكن ضباط فوجى لم يعدوا الأمر أمراً شخصياً ، واعتقدوا أن الاهانة قد لحقت بالفوج كله ؛ واذ لم يكن فى البوفيه أحد من ضباط الفوج غيرى حينذاك ، فاننى بسكوتى قد برهنت للجماهير والضباط الذين كانوا فى البوفيه أنه يمكن أن يضم فوجنا ضباطاً لا تثيرهم اهانة تلحق بشرفهم وتلحق بشرف فوجهم • وكان لا يمكن أن أسلم بهذا الرأى • وأبلغونى أننى مازلت أستطيع اصلاح الأمر ، إذا أنا ارتضيت ، رغم تأخرى ، أن أدعو الضابط • آ • • • وف ، الى المباراة غسلاً للعار ، فلم أحبب ذلك ، وكنت محتداً فرفضت العرض بتكبر واستعلاء ، وسرعان ما قدمت استقالتى • تلكم هى القصة • لقد خرجت متطرساً ، ولكن محطماً • وشاعت المصادفة بما يشبه العمد أن يكون زوج أختى ، الذى يقيم بموسكو ، قد بدد ارثنا المتواضع وحصتى من هذا الارث ، فاذا أنا أجد نفسى فى الشارع لا أملك قرشاً •

ولقد كان يمكن أن ألتبس وظيفة مدنية وأن أحصل عليها ، لكننى لم أرتض لنفسى هذا : فكيف يمكن أن أقبل وظيفة من الوظائف فى السكة الحديدية ، بعد أن كنت أرتدى بزة عسكرية لألاءة متألفة • وأخذت أتدهور : فمن دناعة الى دناعة ، ومن خزى الى خزى ، ومن اسفاف الى اسفاف ، اذ اخترت أن يكون شعارى هو : كلما ازددت سوءاً وشرأ ، كان ذلك أفضل وأحسن • قضيت على هذه الحال ثلاث سنين

ما أبشع ذكراها ! ثلاث سنين انجرفت فيها حتى الى منزل فيازمسكى .
ومنذ سنة ونصف سنة ، ماتت بموسكو امرأة عجوز غنية هي عرّابتي ،
فاذا هي تورثني في وصيتها مبلغ ثلاثة الاف روبل . ففكرت في أمري ،
واتخذت قرارى فيما يجب علىّ أن أسلك من سبيل وأن أحترف من
مهنة . عزمت على أن أفتح مكتب اقراض برهون ، لا أستغفر احداً
ولا أطلب من أحد عفواً أو صفحاً . قلت لنفسي : بذلك أجنى مالاً ،
وأبنى أسرة ، فأبدأ حياة جديدة بعيدة عن ذكريات الماضي . تلکم كانت
مشاريعي . ولكن ذلك الماضي المشؤم وتلك السمعة التي تلمت شرفي الى
الأبد كانا لا ينفكان يعذباني في كل لحظة وفي كل دقيقة . وفي أثناء ذلك
تزوجت . فان سألتهموني هل كان ذلك مصداقة أم لا ، قلت انني
لا أعرف . ولكنني كنت أعتقد حين أدخلتها الى بيتي أنني أدخل صديقة ،
فما كان أشد حاجتي الى صديقة ! وكان لا يفوت بصرى مع ذلك أن هذه
الصديقة كان ينبغي لي أن أهيئها وأن أعمل فيها بل أن أنتصر عليها أيضاً .
فهل كان يمكنني أن أشرح الأمور دفعة واحدة ، لهذه المرأة الشابة
التي لا تتجاوز سنّها ستة عشر عاماً ، والتي تزخر نفسها بأفكار مستقرة
راسخة ؟ كيف كان يمكنني مثلاً ، لولا أن أسعفتني المصادفة التي أدّت
الى الكارثة الرهيبة ، أعني مصادفة المسدس ، أن أقنعها بأنني لست جباناً
رعديداً ، وأن اتهامي في الجيش بالجبن كان ظلماً . ولكن الكارثة قد
أوضحت كل شيء . فحين تحملت ملامسة المسدس لصدغي ، تأرت لكل
ماضيّ المشؤم . واذا لم يكن أحد قد عرف بذلك فقد عرفته « هي » ،
وكان هذا حسبي ، فقد كانت عندي كل شيء ، وكانت كلّ أمل مستقبلي
على نحو ما كنت أراه في أحلامي ! ولو أردت أن أختار لهذا أحداً ، لما
اخترت غيرها ، فلم أكن في حاجة الى أحد سواها ، وها هي ذى قد عرفت
كل شيء ، أو عرفت على الأقل أنها أفرطت في التسرع والتعجل حين
انضمت الى أعدائي . فلا يمكن أن أكون بعد الآن في نظرها جباناً ، بل
إنسان غريب الأطوار في أكثر تقدير ، وهذه فكرة لا يمكن أن تسوءني

كثيراً بعد كل ما حدث : فليس عيباً أن يكون الرجل غريب الأطوار ، حتى ان هذه الصفة تعجب مزاج النساء في بعض الأحيان • الخلاصة أنني تعمدت أن أرجى انتهاء الأمر الى أية خاتمة : فما حدث كان يكفيني ، كان يكفيني في ذلك الأوان من أجل أن يهدأ خاطري وتطمئن نفسي ، وكان الى ذلك يغذي أحلام يقظتي بصور كثيرة • ان أسوأ صفة مشثومة من صفات طبعي هي أنني امرؤ حالم ، فكانت لا تعوزني موضوعات تدور عليها أحلامي في اليقظة • أما هي فأظن أنها « كانت تنتظر » •

على هذه الحال انما انقضى الشتاء كله انتظاراً • وكنت أحب أن أتأملها خلصةً حين تجلس بقرب المائدة • كانت تعمل في تطريز بعض الأغطية • وكانت في بعض الأحيان تقرأ كتباً تأخذها من مكتبتي • فكان اختيارها كتباً من مكتبتي خليقاً هو أيضاً بأن يشهد لي بالفضل والتميز • وكانت لا تكاد تخرج أبداً • فكنت أصطحبها كل يوم عند الفسق بعد العشاء في نزهة ، فتروض قليلاً ، ولكننا لا نبقي صامتين كل الصمت كما كنا في الماضي • كنت أحاول أن أتصرف تصرف من ليس يصمت ، فكان تفاهماً تاماً قد قام بيننا • ولكننا ، كما سبق أن قلت ، كنا نحرص كلانا على ألا يطول بيننا الحديث • وكنت أفعل ذلك عامداً ، لاعتقادي بأن عليّ أن أترك لها « فسحة من الوقت » • ولا شك أنه أمر غريب أنني لم يخطر ببالي مرة واحدة حتى نهاية الشتاء ، أنني ان كنت أحب أن أتأملها خلصة من حين الى حين ، لم أفاجئها تلقى عليّ نظرة طوال تلك المدة ! وقد عزوت غضبها الطرف الى خجلها وحيائها • هذا الى أن هيئتها كانت زاخرة بمعاني المذلة والدماثة والعذوبة ، وكانت تبدو ضعيفة أشد الضعف واهنة أكبر الوهن منذ مرضها ! فكان الأفضل أن أنتظر ، وكنت أقول لنفسي : « لسوف ترجع اليك من تلقاء ذاتها يوماً » ••

وقد اتفق لي في ذلك الشتاء أن قمت ببعض الحسنات منعمداً • فألغيت دينين ، وأقرضت امرأة فقيرة بعض المال بدون رهن ؛ ولم أذكر

ذلك لزوجتي ، ولا فعلته لتعلم به ، ولكن المرأة جاءت تشكر لي صنيعى
وهي تكاد تجثو على ركبتيها تعبيراً عن امتنانها • فشاع الأمر • وبدأ لي أن
امراتى شعرت بسرور صادق حين علمت به •

ولكن الربيع كان يقبل ، وشارفنا على منتصف شهر نيسان (أبريل) ،
ونزعنا عن النوافذ مصاريعها المزدوجة ، وأخذت الشمس ترسل الى داخل
غرفتي الصامتين أشعة دافئة قوية • ولكن غشاوة كانت لا تزال تثقل على
فكرى وتبث فيه الاضطراب • غشاوة قاتلة رهيبة ! فكيف حدث أن زالت
تلك الغشاوة فجأة ، فإذا أنا أرى كل شيء وأفهم كل شيء ؟ أكان ذلك
بمصادفة محضة ؟ أكان ذلك هو اليوم الذى حدده القدر ؟ هل جاء شعاع من
شمس فأشعل فى فكرى المخبول تلك الفكرة ، وأثبت ذلك الاكتشاف ؟
لا ، لم يكن ذلك لا فكرة ولا اكتشافاً ، ولا بد أن شرياناً كان ساكناً
فتحرك ، أو أن وترأ كان جامداً فاهتز ، فإذا هو يضيء نفسى كلها على حين
فجأة ، وإذا هو يستثير كل خيالاتى الشيطانية • لقد انتفضت عندئذ
انتفاضة مباغتة ، مفاجئة ، لم تكن فى الحسبان أبداً • وقع الحادث فى
المساء ، الساعة الخامسة ، بعد العشاء ...

٢

الغشاوة التي سقطت

اليكم أولاً هاتين الكلمتين • كنت قد لاحظت لديها منذ شهر
اكتئاباً غريباً • لم يبق الأمر صمتاً بل صار اكتئاباً • ذلك أيضاً قد انكشف
لى فجأة • كانت جالسة تطرّز مائلة على شغلها برأسها ، فلا ترى أنني
أنظر إليها • فما كان أشد استغرابي ، على حين غرة ، حين رأيته مهزولة
ذلك الهزال كله ، نحيلة ذلك النحول كله ! كان وجهها شاحباً ، وكانت
شفثاها باهتتين لالون لهما • ذلك كله شدّني بفتة الى أقصى حد ،
وكذلك ما يعبر عنه وجهها من أسمى وحزن وكآبة • وكنت قد سمعت
ذلك السعال القصير الجاف يخرج من صدرها قبل الآن ، ولا سيما في
الليل • فما ان رأيته هذه المرة على هذه الحال حتى مضيت الى الدكتور
شرودر فوراً دون أن أقول لها كلمة واحدة •

وجاء الدكتور شرودر في الغد • فدهشت هي من مجيئه دهشة
كبيرة ، فكانت نظراتها تتجه اليه تارة ، وتتجه الى تارة أخرى • وقالت
وهي تبسم ابتسامة لا يمكن تحديد معناها :

– ولكنني بخير •

لم يفحصها الدكتور شرودر طويلاً (ان لهؤلاء الأطباء أسلوباً في
التعالى عليك أحياناً) ، واكتفى بأن قال لي في الغرفة الأخرى ان هذا من
نقايا مرضها ، وانها لن يضرها أن تسافر في الربيع الى البحر تستشق

هواه ، أو أن تمضى الى الريف فى أقل تقدير • أى انه لم يقل شيئاً ، سوى أنها تعاني من فقر فى الدم ، أو شيء من هذا القيل •

وحين انصرف شرودر عادت تقول لى وقد لاح فى وجهها جد شديد صارم :

— أنا بخير وعافية ، لست مريضة •

ولكنها حين قالت هذا الكلام اصطبغ وجهها بحمرة شديدة لعل مردّها الى الحجل ، بل ان مردّها الى الحجل قطعاً ، فقد كان ذلك واضحاً • آه • • انتى أدرك هذا الآن : كانت تشعر بخجل من أنتى لأزال زوجها ، وأنتى ما زلت أهتم بها اهتمام زوج حقيقى • ولكننى لم أفهم من ذلك شيئاً حينذاك ، ونسبت احمرار وجهها الى شعورها بالمذلة (آه من الغشاوة !) •

وهأنذا ، بعد انقضاء شهر على ذلك ، فى نحو الساعة الخامسة من الأصيل ، فى يوم ساطعة شمس من أيام شهر نيسان (أبريل) ، كنت جالساً فى مكتبى أجرى بعض الحسابات ، فاذا أنا أسمعها تدندن فى الغرفة المجاورة ، أثناء عكوفها على تطريزها ، أغنية من الأغنيات بصوت رقيق خافت • فكان من شأن هذا الشيء الجديد الذى لا عهد لى به منها أن هزنى هزاً قوياً • نعم ، وانتى لم أفلح فى فهم هذا الأمر حتى هذا اليوم • لم أكن قد سمعتها تغنى قبل ذلك ، اللهم الا فى الأيام الأولى من دخولها بيتى حين كنا لا نزال تسلى بتصويب المسدس واطلاق النار على هدف • وكان صوتها فى ذلك الحين قوياً رخيماً ، وكان سليماً ومطرباً رغم ما يدل عليه من ضعف الثقة بالنفس • أما الآن فان غناءها ضعيف أشد الضعف ! لن أقول انه غناء حداد (ولقد كانت الأغنية احدى الرومانسات) ، غير أن من يسمعه يحس أن صوتها مهشم ، وكأنه لا يستطيع أن يخرج من صدرها ، وكأن الأغنية نفسها مريضة • كانت تغنى بصوت

خافت ، فما ان يرتفع صوتها فجأة حتى يتحطم ، وكان من شدة التحول والفقر أنه يتحطم تحطماً يعبر عن الانتحاب ويثير الاشفاق • واعترتها نوبة سعال قصيرة ، ثم عادت تترنم بأغنيتها بصوت لا تكاد الأذن أن تسمعه من فرط خفوته ***

لسوف تضحكون تهكماً على احتياجي • ولكن لن يفهم أحد في يوم من الأيام لماذا استبد بي انفعال شديد ! ان ما شعرت به لم يكن شفقة بعد • وانما كان ، في اللحظات الأولى على الأقل ، حيرة مفاجئة ، ودهشة رهبة ، دهشة رهبة عجيبة ، فيها ألم ، وفيها ما يشبه أن يكون حقداً ورغبة في الانتقام : « ماذا ؟ أتغنى بحضورى ؟ أنسيت اذن أنني هنا ؟ » •

بقيت في مكاني جامداً مضطرباً متحيراً ، ثم نهضت فجأة ، وخرجت كأنني نبت الى رشدى • والحق أنني لا أعرف لماذا قمت ولا ماذا أنوى أن أعمل • ومّدت الى لوكيريا معطى •

قلت أسأل لوكيريا بغير ارادة :

- أهى تغنى ؟

فلم تفهم لوكيريا ونظرت الى مرتبكة • وكان من حقها ألا تفهم ، فالواقع أنه ما كان لأحد أن يفهم ما بى • وأردفت أسأل لوكيريا :

- أهى تغنى أول مرة ؟

فأجابت لوكيريا بقولها :

- بل يتفق لها أن تغنى أثناء غيابك عن البيت •

لا يزال الباقي كله مائلاً في ذاكرتى • نزلت السلم ، وخرجت الى الشارع لأمضى الى أى مكان • سرت حتى زاوية الشارع ، وسرّحت طرفى • كان يمر ناس فيصدموننى ، فلا أحس بشئ • وناديت حوذاً ، وأردت أن يقودنى الى « جسر الشرطة » لا أدري لماذا • لكننى سرعان

ما عدلت عن هذه الفكرة ، فنقدت الحوذى عشرين كوبكاً وأنا أقول له
مبتسماً ابتسامة بلها : .

– جزاء ازعاجك بغير فائدة •

ولكن قلبي ارتعش في تلك اللحظة بنوع من الحماسة •

رجعت الى البيت وأنا أغذ الحطى • ان النعمات الحزينة من الأغنية
المحطمة قد ترجعت في نفسي على حين غرة • شعرت بأنفاسي تنقطع •
الغشاوة سقطت أخيراً عن عيني ، سقطت الغشاوة ! ما دامت قد غنت
بحضوري ، فمعنى ذلك أنها نسيت – الأمر واضح بقدر ما هو مريع •
أحس قلبي ذلك • ولكن الحماسة التي أشرفت في نفسي غلبت الروح •
يا لسخرية القدر ! هل كان في نفسي طوال ذلك الشتاء شيء غير تلك
الحماسة ، بل هل كان يمكن أن يوجد في نفسي طوال ذلك الشتاء شيء
غير تلك الحماسة ؟ فأين كنت أنا في ذلك الشتاء ؟ هل كنت مع نفسي ؟
صعدت السلم مسرعاً ، فلا أدري هل كان دخولي رزينا • كل ما أتذكره
هو أن الأرض كانت ترقص تحت قدمي ، وأنتى كنت أحس بنفسى
عائماً في نهر • دخلت الغرفة • كانت جالسة في مكانها وكانت تطرز
مائلة برأسها على شغلها • ولكنها قد انقطعت عن الغناء • ألقت على نظرة
سريعة خالية ، نظرة ليست نظرة ، وانما هي تلك الحركة الآلية التي
ليس فيها اكتراث ، الحركة التي تجريها حين يدخل أحد الغرفة •

مضيت اليها قدماً ، وجلست بقربها على كرسي كالمجنون •
فاذا هي تنظر الى فجأة مذعورة مرتاعة • تناولت يدها • ولا أتذكر
الآن ماذا قلت لها ، أو قولوا ماذا أردت أن أقول لها ، لأننى لم أفلح في
أن أرسل كلامى سليماً صحيحاً • وانحبس صوتى ، وعقل لسانى ،
فلم أعد أنطق بحرف • ثم انتى كنت لا أدري ما عنسانى أقول لها •
كنت أختق اختقاً •

وفجأة تمتمت أقول لها ببلاهة :

.. هلا تكلمنا .. قليلاً .. فولى لى شيئاً ..

نعم ، بهذه البلاهة خاطبتها ، ولكن هل كان يمكن أن أكون فى تلك اللحظة ذكياً ؟ فما ان نظرت الى وجهها لوجه حتى ارتعشت وترنحت من جديد ، واعتراها هلع شديد . ولكن « اندهاشاً قاسياً » لم يلبث أن ارتسم على وجهها . نعم ، كان ذلك اندهاشاً ، وكان قاسياً . نظرت الى وقد اتسعت حدقتها . فسرعان ما صعقتنى تلك القسوة ، سرعان ما صعقتنى ذلك الاندهاش القاسى . كان ذلك الاندهاش كأنه يسألنى رغم صمتها : « أما زلت اذن تطلب حباً ؟ حباً ؟ » ، قرأت ذلك فى وجهها رغم أنها لم تقل شيئاً . فاذا كل شىء فى نفسى يهتز ، واذا أنا أهوى على قدميها . نعم ، نهالكت على قدميها . فنهضت بوئبة واحدة ، ولكننى بقوة خارقة أمسكتها من ذراعها .

ذلك أننى كنت أدرك ما أنا فيه من كرب ويأس ادراكاً كاملاً . آه ... نعم ، كنت أدركه ! ومع ذلك - هل تصدقون ؟ - كانت الحماسة تقلى فى قلبى غلياناً يبلغ من القوة والصرامة التى لا سبيل الى قمعها أننى اعتقدت بأن حينى قد حان ، وأنى أموت . طفقت ألتئم قدميها سكرأ ونشوة وسعادة . نعم ، سعادة طافحة ، لا نهاية لها ، على علمى بأننى صرت الى يأس لا مخرج منه . وكنت أبكى ، وأتكلم دون أن أجد الى الكلام سبيلاً . فاذا بالارتياح والدهشة يحل محلها عندها قلق وتساؤل ، فتتظر الى وقد لاح فى وجهها استغراب ، وحتى توحش . كانت تريد أن تفهم شيئاً بأقصى سرعة ، وكانت تبسّم . ولقد أشعرها بخزى رهيب أن رأيتى أقبل قدميها ، فسحبتهما ، ولكننى قبّلت عندئذ الموضع الذى كانت فيه قدماها من الأرض . فلما رأيت هذا ضحكت شعوراً منها بالحجل والخزى (هل رأيتم أحداً يضحك شعوراً منه بالحجل والخزى ؟) . وأوشكت أن تعثرها نوبة عصبية . رأيت ذلك . كانت

يداعها ترتجفان • ولم أحترس ، فظلمت أتمتم قائلاً اننى أحبها ، واننى لن أكف عن حبها ؟ وأضفت أقول : « دعينى أقبل ثوبك ••• هكذا ••• سأقضى حياتى كلها مصلياً لك ، ضارعاً اليك ••• نسيت الآن ما قلته لها أيضاً • وانى لكذلك ، اذا هى تنفجر ناشجة منتحبة ، وتأخذ ترتعش • هذه نوبة عصبية تعثر بها • لقد روّعتها •

نقلتها الى السرير • فلما انتهت النوبة ، جلست على سريرها وقد بان فى وجهها ارهاق شديد واعياء قوى ، وأمسكت يدي ، وأخذت تتوسل الىّ أن أهدأ ، وتقول لى : « لا تعذب نفسك ، هدىء بالك ، » ثم استأنفت بكاءها • لم أتركها طوال المساء • وظلمت أقول لها اننى سأخذها الى بولونى لتستحم فى مياه البحر ، وانى سأفعل هذا الآن ، على الفور ، بعد خمسة عشر يوماً ؟ وانى قد سمعت فى صوتها بالأمس من التحول والتكسر والتحطم ما يجعلنى أقرر أن أغلق المكتب ، وأبيع به الى دوبرونرافوف ؟ وانما سنبداً كل شيء بدءاً جديداً ، واننا سنسافر خاصة الى بولونى ، الى بولونى ! فكانت تصغى الى كلامى ولا تكف عن الارتياح ، وكان الجزع يجتاحها أكثر فأكثر • على أن أهمّ شيء فى نظرى لم يكن هو هذا ، وانما كانت تستبدى من جديد رغبة عارمة قوية ما تنفك تشتد وتعنف فلا سبيل الى مقاومتها ومغالبتها ، وهى أن أرتدى على قدمى زوجتى مرة أخرى ، وأن آخذ بتقيلهما من جديد ، وأن ألتزم الأرض التى وطئتها قدماهما ، وأن أرجوها مردداً فى كل لحظة « لا ألتمس منك الا شيئاً واحداً •• لا تحينى ، لا تلقى بالاً الىّ ، لا تكثرينى بى •• ولكن دعى لى أن أنظر اليك من الركن الذى أقبع فيه ، اجعلينى متاعاً لك ، هدىنى شيئاً من أشياءك ، احسينى كلبك الصغير ! » وكانت تبكى • وأفلت منها قولها بغير أن تريد ذلك :

ـ « كنت أقدر أن تتركينى على هذه الحال ••• » •

قالت ذلك على غير ارادة منها ، ولعلها لم تسمع ما قالته • ولكن

هذا الذى قالته كان أخطر كلامها شأنًا ، وأشدّه شؤمًا ، وأكثره استقلالًا على الفهم طوال السهرة ، وكان أشبه بطعنة نفذت فى قلبى حين سمعته ! لقد أوضحت لى تلك الجملة كل شيء ، كل شيء ولكنى أثناء وجودها بقربى أمام عينيّ ، لم يكن فى وسعى أن أفقد الأمل ، حتى لقد كنت أمتشق غير مسعادة لا حدود لها . آه . . . كنت فى ذلك المساء أرهقها تعبًا ، وكنت أدرك ذلك ، ولكنى لا أنفك أحلم بأن أصلح كل شيء على الفور ! وحين هبط الليل أخيرًا ، خارت قواها وانهارت انهباءً . فأقنعتها بأن تسام ، فسرعان ما نامت نومًا عميقًا . وكنت أتوقع أن تهذى ، فهذت فعلاً ، ولكن هذيانها كان خفيفًا . ولبثت الليل كله أقوم فى كل لحظة ، فاقرب منها ببابوجين دون أية ضجة ، لأنظر إليها ، وأأمل وجهها . فكنت حين أرى هذا الكائن الصغير المريض ، الرائد على ذلك المضجع هناك ، على ذلك السرير المصنوع من حديد الذى اشتريته لها بثلاثة روبلات ، لا يسعنى الا أن أعقف يديّ أسفًا وحسرة . وكنت أجنو على ركبتيّ ، دون أن أجرو مع ذلك على أن أقبل قدمي النائمة (ولو فعلت لكان ذلك يخالف ارادتها ويسوؤها) . وكنت أحاول أن أصلى لله ، ولكنى لا ألبث أن أنهض بوثة . وكانت لوكيريا تنظر الىّ ، ولا تنفك تخرج من المطبخ . فمضيت إليها ذات مرة وطلبت منها أن تنام ، وقلت لها ان كل شيء « سيُتدارك فى غد وسيتغير » .

وذلك ما كنت أومن بها إيمانًا أعمى ، إيمانًا مجنونًا . آه . . . كانت الحماسة تغمر قلبى ، تغرق قلبى ! كنت لا أنتظر الا أن يجرى الغد . والأنكى من ذلك أننى كنت لا أتصور أن تنزل بنا مصيبة ، لأننى كنت لا أرى شيئًا يندر بذلك . لم أكن قد استرددت رشدى كاملاً ، رغم أن الغشاوة تمزقت . ومضى وقت طويل قبل أن أسترده رشدى كاملاً ، وقت طويل امتد الى هذا اليوم ، بل اننى حتى فى هذا اليوم لم أصبح صحواً تاماً . وأين لى أن أصبح صحواً تاماً فى ذلك الحين ؟ ألم تكن

لا تزال حية ، هي أمامي وأنا أمامها ؟ « غداً تستيقظ ، فاحكى لها كل شيء ، وتكتشف كل شيء » • تلکم كانت خواطرى فى ذلك الوقت ، واضحة كل الوضوح ، بسيطة أشد البساطة ، ومن ثم كانت تتبع حماسى الغامرة الفيضة ، وكانت فكرة السفر الى بولونى خاصة تؤجج تلك الحماسة تأججاً شديداً ، اذ كنت أنصور - لا أدري لماذا - أن بولونى كل شيء ، وأن فى بولونى مستقراً لكل شيء • « الى بولونى ، الى بولونى ! • • • » •

وعلى هذه الحال من الحرف والهذيان ، انما كنت أنتظر طلوع الفجر •

فهمت كل الفهم

ما رأيكم في أن هذا انما وقع منذ بضعة أيام فحسب ، منذ خمسة أيام ليس غير ، في يوم الثلاثاء الماضى ؟ نعم نعم ، لو أنها انتظرت بعض الانتظار على الأقل ، لو أنها تريثت قليلاً ، لو أنها تمهلت شيئاً من التمهّل ، اذن لاستطعت أن أبدد جميع الظلمات . ألم تكن قد هدأت ؟ بلى . لقد أصبحت منذ الغد تصفى الى مبتسمة رغم حيرتها وارتباكها . ان ما كنت ألاحظه فيها طوال ذلك الوقت ، طوال تلك الأيام الخمسة ، انما هو الحيرة والارتباك خاصة ، أو هو الحجل والحياء . وكانت خائفة أيضاً ، كانت خائفة خوفاً كبيراً . لا أنكر هذا . لست مجنوناً فأزعم النقيض . كان ذلك خوفاً . ولكن كيف كان يمكن ألا تخاف ؟ كنا قد عشنا غريبين أحدهنا عن الآخر ، بيدين أحدهنا عن الآخر ، مدة طويلة ، وحدث كل ما حدث مباغتاً أشد المباغتة ولكننى لم اكثر بمخاوفها : ان فجراً جديداً يطلع ! والحق أننى ارتكبت خطأ فاحشاً . ذلك حق لا يمكن أن أمارى فيه . لقد ارتكبت خطأ منذ استيقظنا فى الغد ، ذلك الصباح نفسه (يوم الثلاثاء) : أسرعت أعاملها كما تعامل صديقة . تعجلت . أسرفت فى التعجل . ولكن كان لابد لى من أن أعترف لها ، كان لا غنى لى عن هذا الاعتراف . لا أقل من الاعتراف ! وهكذا بحث لها بما أخفيته حتى عن نفسى . بما أخفيته عن نفسى طول حياتى . قلت لها فجأةً اننى خلال هذا الشتاء كله كنت واثقاً بحبها ؟ وكشفت لها عن

أن مكتب الاقراض هذا ليس لوجوده من سبب الا ضعف ارادتي وقلة ذكائي ، وانه اسلوب ابتكرته لمعاينة نفسى والمباهاة بها فى الوقت نفسه . وذكرت لها أن ما 'وصفت' به من جبن لم يكن تجنيا على بل كان حقاً ، اذ لقد جئنت فعلاً فى بوفيه المسرح ، لأننى رجل خائر العزيمه سىء الظن شديد المحاذرة ؛ وكان الجو الذى يحيط بى ، والبوفيه ، وكل ذلك ، قد ملأنى دهشة . ثم هذا الأمر أيضاً : كيف كان يمكن أن أخرج من هذه الورطة دون أن أبدو للناس سخيلاً مضحكاً ؟ ان خوفى لم يكن من المصارزة ، بل من أن أظهر للملأ سخيلاً مضحكاً . ثم اتنى لم أشأ أن أوافق على المصارزة ، فأخذت أعذب جميع الناس ، فعدبتها هى أيضاً بسبب ذلك ، وتزوجتها بعدئذ من أجل أن أعذبها . الخلاصة أن أكثر كلامى لها كان كالهذيان . فأمسكت يدى ، وضربت الى أن أسكت ، قائلة : ' انك تبالح ، انك تعذب نفسك ، . وطفقت تبكى من جديد ، وأوشكت أن تعترىها نوبة عصية أخرى ! وكانت لا تنفك ترجونى أن أسكت وألا أثير هذه الذكريات .

ولكننى أغضيت عن ضراعاتها ولم أحفل بها ، وظللت أحدثها عن الربيع وبولونى قائلاً : هناك ستشرق الشمس . . . هناك ستلأ شمسنا الجديدة . وكنت لا أقول لها شيئاً غير هذا ! وأغلقت المكتب ، وعهدت بالعمل الى دوبرنرافوف . واقترحت عليها فجأة أن نوزع كل شىء على الفقراء ، الا الثلاثة آلاف روبل التى ورتها من عرّابتي ، فبهذا المبلغ نسير الى بولونى ، ثم نرجع من بولونى لنبدأ حياة عمل جديدة . على هذا اتفقنا ، لأنها لم تعترض بشىء ، لم تقل شيئاً ، واكتفت بالتبسم . وأظن أنها كانت تبسم كياسةً ولباقةً حتى لا تؤلنى . وكنت أرى رؤية واضحة أننى أتعبها . لا تظنوا أننى بلغت من الأنانية والحماقة حدّاً يجعلنى لا ألاحظ ذلك . لقد رأيت هذا كله ، رأيت به بأدق التفاصيل . كنت

أرى وأعلم أكثر من أى انسان فى العالم • وكان يأبى كله ماثلاً أمامى
تحت بصرى •

طفقت لا أحدها الا عنها وعنى • وعن لوكيريا • قلت لها اننى
بكيت • وعرفت كيف أحرف الحديث عن مجراه • حرصت على أن
لا أثير ذكرى بعض الأمور • حتى ان هيئتها قد انتشيت مرة أو مرتين •
أذكر هذا ، أذكر هذا ! ما بالكم تزعمون أننى كنت أنظر فلا أرى
شيئاً ؟ ولو أن « ذلك » على الأقل لم يحدث ، لكان هذا انبعاثاً • ألم
تقصص علىّ فى غداة الغد ، حين جرى الحديث على القراءة وعلى ما قرأته
أثناء هذا الشتاء ، ألم تقصص علىّ ، وهى تضحك لهذه الذكرى ، مشهد
« جيل بلاس » مع رئيس أساقفة غرناطة ؟ وما كان أروع ضحكها ! كان
كضحك طفلة صغيرة ، ذكرنى بضحكها أيام الخطوبة (مدة لحظة ،
لحظة واحدة) • آه ما كان أسعدنى ! ومع ذلك لم تدهشنى قصتها عن
رئيس الأساقفة • وقلت لنفسى : معنى هذا أنها استطاعت فى خلال هذا
الشتاء أن تسترد كثيراً من هدوء البال والطمأنينة والسعادة ، حتى أخذت
تسلى بقراءة أثر من عيون آثار الأدب • معنى ذلك أنها أخذت تألف
الوضع وتتلاءم مع الظرف ، وأنها أخذت تؤمن حتماً بأننى سوف أتركها
« على تلك الحال » • لقد قالت لى فى يوم الثلاثاء ذاك : « كنت أظن أنك
مستركنى على هذه الحال » • تلك فكرة تراود خاطر صبية صغيرة فى
العاشرة من العمر ! كانت تعتقد فعلاً - كانت تعتقد بذلك - بأن كل شيء
سيبقى على تلك الحال • • • • • أجلس أنا الى مائدتى ، وتجلس هى الى
مائدتها ، ونبقى على هذه الحال الى سن الستين • ثم هأنذا أتدخل تدخل
زوج • والزوج يطلب أن تحبه زوجته • فذلكم كان سوء فهمى • وتلكم
كانت عماوتى ! • • • • •

وكان خطأ آخر هو أننى كنت أتأملها فى حماسة • كان ينبغى لى أن
أكبح زمام نفسى ، لأن حماسى أخافتها • ولكن ألم أكبح زمام نفسى

حين كنت أمتنع عن لثم قدميها ؟ وما من مرة هممت ... هيّا ...
قلها ... نعم ... ما من مرة هممت أن أفعل ما يفعله زوج . حتى ان
ذلك لم يخطرلى على بال ؟ وكانت شفتاي لا تتحركان الا بالضراعة
والرجاء .

على أننى ما كنت لأستطيع أن أسكت سكوتاً تاماً فما أنطق بكلمة !
لذلك رأيتنى أعترف لها فجأة بكل المسرة التى أجنيها من حديثها ، وأعبر
عن مدى ما أكنه من احترام لها وأصفها بأنها تفوقنى أدباً وثقافة فلا وجه
للمقارنة بينى وبينها فى مضمار الأدب والثقافة . فاصطبغ وجهها بحمرة
شديدة ، وخجلت خجلاً قوياً ، وقالت انى أبالغ . وفقدت عندئذ سيطرتى
على نفسى ، فاذا أنا أرتكب حماقة كبرى ، فأصف لها ما شعرت به من
سورات الحماسة حين كنت واقفاً وراء الباب أتنصت على الهجوم الذى
شنته طهرها على ذلك الرجل السخيف المضحك ، وأصف لها ما ذقته من
لذة عاطفية حين كنت أسمع عباراتها اللاذعة ، وأشهد براءتها الساذجة .
فاذا هى يسرى فى جسمها كله ما يشبه أن يكون رعدة ، واذا هى تهم
أن تقول اننى أبالغ ، ولكن وجهها لم يلبث أن اكفهر واربد ، ثم أسرع
تدفن رأسها فى يديها وتنفجر باكية ... فلم أستطع عندئذ أن أكبح
جماح نفسى ، فاذا أنا أركع من جديد ، وأهوى على قدميها ألتئمها ، واذا
بهذا كله ينتهى بنوبة عصبية أخرى تعترىها كما اعترتها نوبة عصبية فى
المرّة الأولى . حدث ذلك فى العشية ، حتى اذا طلع الصباح ...

الصباح ؟ يا لى من مجنون ! ... ان ذلك الصباح هو هذا اليوم ،
هو اليوم الذى نحن فيه ، هو منذ برهة ، منذ برهة ...

اصفوا الى ، وتابعوا ما أقوله . منذ مدة وجيزة ، حين افترقنا عقب
تناول الشئى (حدث هذا بعد النوبة العصبية التى اعترتها أمس) ،
أدهشنى ما رأيته فيها من هدوء . تلكم كانت حالنا . وكنت من جهتى قد
قضيت الليل كله أرتعش وأرتجف تحت وطأة مشهد الأمس . ولكنها

اقتربت منى على حين فجأة ، وضمت ذراعيها احدهما الى الأخرى ابتهالاً (منذ قليل ، منذ قليل !) وأخذت تقول لى انها مجرمة وانها لا تجهل ذلك ، وان جريمتها قد عذبتُها طوال الشتاء ولا تزال تعذبها الى الآن ... وانها تقدر شهامتى ومروءتى قدراً عظيماً ... وأضافت تقول : « لسوف أكون خليلتك الوفية ، وسوف أقدمك تقديساً » . فما ان سمعت هذا الكلام حتى انتفضت ، وهجمت أعانقها بذراعى كالجنون ! وقبلتها ، قبلت وجهها وشفتيها ، ثقيل زوج زوجته ، لأول مرة منذ انفصالنا الطويل .

لماذا خرجت بعد قليل لأغيب عن البيت ساعتين ؟ خرجت لأنجز اجراءات جوازى سفرنا الى الخارج . آه ... يا رب ! لو أتى رجعت قبل خمس دقائق لا أكثر ... اذن لكان يمكن ألا يحدث ما حدث ! ولكن هأنذا أرجع الى البيت ، فأرى أمام بابنا حشداً كبيراً من الناس ، وأرى الأبصار كلها تشخص الى ... آه ... رباه !

وتقول لى لوكيريا (الآن لن أدع لوكيريا تنصرف بحال من الأحوال . انها تعرف كل شئ . بقيت عندنا الشتاء كله ، فسوف تقص على ما تعرف) ، تقول لى لوكيريا انها ، بعد خروجى من البيت بعشرين دقيقة فى أكثر تقدير ، دخلت على مولاتها فى غرفتنا فجأة لتسألها عن أمر من الأمور ، فلاحظت أن الأيقونة (أيقونة العذراء تلك نفسها) لم تكن فى مكانها ، وأن مولاتها كانت قد وضعت الأيقونة أمامها على المائدة ، وأن مولاتها كان يبدو عليها أنها صلت للأيقونة فى تلك اللحظة نفسها . قالت لى لوكيريا : سألتها : « ما بك يا سيدتى ؟ » ، فأجابتنى : « لا شئ » يا لوكيريا ، اذهبي لتسألك ، بل انتظري يا لوكيريا ، . وتقدمت منى وقبلتنى . سألتها : « هل أنت سعيدة يا سيدتى ؟ » فأجابتنى : « نعم يا لوكيريا ، . قلت : « كان ينبغى لمولاي أن يطلب منك العفو منذ مدة طويلة ... الحمد لله على أنكما تصالحتما » . قالت : « طيب يا لوكيريا ،

اذهبي الآن لشأنك يا لوكيريا ، . وابتسمت مرة أخرى ، ولكن ابتسامتها كانت غريبة . كانت من الغرابة بحيث ان لوكيريا رجعت بعد عشر دقائق لترى ماذا كانت تفعل . « كانت مكبةً على الحائط بقرب النافذة ، قد أسندت اليه احدي ذراعيها وأسندت الى الذراع رأسها . وبقيت على هذه الحال مستغرقة في أفكارها ، حتى لقد بلغت من شدة الاستغراق أنها لم تلاحظ أنني لبثت في الغرفة أنظر اليها . ورأيت في وجهها ما يشبه الابتسام ، ورأيتها تفكر ثم تبتسم . نظرت اليها ملياً ، ثم استدرت في رفق وهدوء ، وخرجت واجمة مفكرة ، فاذا أنا أسمعها تفتح النافذة فجأة . فرجعت لأقول لها : « الهواء بارد يا سيدتي ، فحذار أن يصيبك برد » ، لكنني رأيتها ترتقي حافة النافذة المفتوحة ، وتقف عليها منتصبه القامة ، مديرةً ظهرها الى ، محتضنةً الأيقونة بيديها . فهبط قلبي فزعاً وصرخت : « سيدتي ! سيدتي ! » ، فسمعت صوتي ، وتحركت لتلتفت نحوي ، ولكنها لم تلتفت ، بل ترجحت ، وشدت الأيقونة الى قلبها ، ملقيةً بنفسها من النافذة ! » .

أذكر أنني حين اجتزت بوابة الفناء كان جسمها لا يزال حاراً . وأهول ما في الأمر أن جميع الناس كانوا ينظرون الى . سمعت أول ما سمعت صرخات وصيحات ، ثم صمت المحتشدون كافةً وتنحوا عن طريقي ليفسحوا لي ممراً . كانت راقدة هناك ، قابضةً على الأيقونة . أذكر ، كما يذكر المرء رؤية في ظلمات ، أنني تقدمت صامتاً ، وتأملتتها ملياً . كان الجمهور قد ابتعد ، وكان يُقال لي شيء ما . وكانت لوكيريا هناك ، لكنني لم أبصرها . يقال لي انها كلمتني . انني لا أتذكر الا ذلك البائع الذي كان لا ينفك يصيح قائلاً لي : « خرج من فمها خيط نحيل

من دم ، خيط ، خيط من دم ! ، ، وكان يشير لى الى الدم هناك على
الحجر . وقد لمست الدم فطلبت به أصبعى (أذكر هذا) ، بينما كان
البائع لا يزال يصيح « خيط نحيل من دم ! ، ، فما كان منى الا أن زأوت
زئيراً شديداً فى أغلب الظن ، وشهرت قبضتى يدي ، وهويت عليه . . .
آه . . . يا للحادث القاسى ، الأليم ! سوء فهم ! غلطة ! شيء لا ' يعقل
حدوثه ! شيء مستحيل !

٤

بسبب خمس دقائق من التأخر

أأكون واحداً ؟ هل هذا كله 'يعقل' حدوثه ؟ هل يمكن أن يقول
أحد ان مثل هذا الأمر ممكن ؟ لماذا ماتت هذه المرأة ؟

صدقوا اننى أفهم الأمر • ولكن سبب موتها ... يظل سؤالاً قائماً •
لقد خافت من حبيبى • تساءلت جادة : « أيجب أن أقبله أم لا ؟ » • فلما
لم تطلق احتمال هذا السؤال ، آثرت أن تموت • أنا أعرف ذلك ، أعرفه ،
فلا حاجة الى أن أصدّع رأسى • لقد تورطت فى وعود مسرفة ، وخشيت
ألا تستطيع الوفاء بها • الأمر واضح • تضافرت ظروف رهبة •
هذا كل شيء •

ذلك أننى أتمسك حقاً لماذا ماتت ؟ لا يملك المرء الا أن يعود الى
هذا السؤال • والسؤال قائم تحت جمجمتها ينبض ويخفق • لقد كان
يمكننى أن أدعها على « تلك الحال » ، ما دامت هذه هى رغبتها •
ولكنها لم تصدقنى • وتلك هى حقيقة الأمر كله • لا ، لا ، اننى أكذب :
ما هذه هى حقيقة الأمر • بل حقيقة الأمر أنها كان سيجب عليها فى
المستقبل أن تحببني حباً صادقاً ، حباً كاملاً تاماً ، لا كالحب الذى كانت
ستهيه للبقال • ولكنها كما كانت أعف وأطهر من أن ترتضى هذا النوع
من العاطفة التى تلائم بقالاً ، قد رفضت أن تغشنى وتخدعنى • لم تشأ
أن تغشنى وتخدعنى بأن تهب لى نصف حب أو ربع حب فى حلة حب

كامل • كانت شريفة مسرقة في الشرف ، وكانت مستقيمة مغالية في الاستقامة • ذلك هو الأمر كله ! ألا ما كان أغباني حين أردت أن أعلمها رحابة الفكر ، هل تتذكرون ؟ فكرة غريبة عجيبة !

وهناك نقطة يهمني كثيراً أن تتضح لي : ترى هل كانت تعتبرني ؟ لا أدري أكانت تحتقرني أم لا • ولكنني لا أعتقد مع ذلك أنها كانت تحتقرني • شيء غريب ! لماذا لم يخطر على بالي في يوم من الأيام طوال الشتاء أنها ربما كانت تحتقرني ؟ لقد بقيتُ الى آخر لحظة ، الى اللحظة التي نظرت الىّ فيها « بدهشة قاسية » ، بقيت على يقين تام بنقيض ذلك • وحينذاك انما أدركت فجأةً أنها تحتقرني • فهمت ذلك مرةً الى الأبد • آه ! أي ضير ، أي ضير في أن تظل تحتقرني طوال حياتها شريطة أن تبقى حية ، أن تبقى حية ؟ انني لا أفهم أن تكون قد ألفت نفسها من النافذة ! منذ قليل كانت تمشي ، وكانت تتكلم ! وكيف كان يمكنني أن يخطر ببالي ما عقدت نيتها عليه ، ولو قبل خمس دقائق ؟ لقد ناديت لوكيريا • لن أدع لوكيريا ترحل ، لا ، لن أدعها ترحل بحال من الأحوال •

أواه ! كان لا يزال في امكاننا أن نتفاهم • صحيح أننا كنا في أثناء هذا الشتاء قد فقدنا كثيراً تعود أحداً على الآخر وألفته له ، ولكن ألم يكن في وسعنا أن نسترد ذلك التعود وتلك الألفة ؟ ان نفسي نبيلة سامية - وكذلك نفسها - فكان يمكن أن يكون هذا نفسه نقطة الاتصال والالتقاء ! لو تبادلنا بضع كلمات أخرى ، لو تريثت يومين آخرين ، يومين لا أكثر ، لكان يمكن أن تفهم كل شيء •

أنكى ما في الأمر أن هذا كله ثمرة المصادفة ، ثمرة مصادفة عمياء ، قاسية ، وحشية ، غادرة • ياله من ظلم وجور ! خمس دقائق ، لا أكثر من ذلك ، خمس دقائق من تأخر ! لو أنني رجعت قبل خمس دقائق ، لانقضت اللحظة المشثومة كما ينقض حلم ، ولما خطر الأمر بباليها بعد ذلك في يوم من الأيام • كانت ستفهم في النهاية • وبدلاً من ذلك ، هاهي

ذى الغرف تقفر من جديد ، وهأنذا أبقي وحيداً مرة ثانية ؟ هل تسمعون دقات الساعة ؟ ان الساعة لا يهمها الأمر انها لا تأسف لشيء ولا تتحسر على شيء . آه . . . ألا يكون للانسان أحد فى هذا العالم . . . يا له من حزن !

اننى أسير ذاهباً آيباً ، ولا أزيد على أن أذهب وأؤوب . أعلم ما يدور فى أذهانكم ، أعلمه ، فلا حاجة بكم الى أن تقولوه : انه يبدو لكم أمراً سخيفاً مضحكاً أن ترونى آسفا لمصادفة هذه الدقائق الخمس ؟ ولكن ، أسفى شيء يدركه الانسان بداهة . تذكروا أنها لم تترك حتى ورقة تعلن فيها أنه لا ينبغي اتهم أحد بأنه سبب موتها ، كما يفعل ذلك جميع من ينتحرون . ألم يكن فى وسعها أن تقدّر أن من الممكن اطلاق لوكيريا وازعاجها ، كأن يقال لها : « كنت وحيدة معها ، فلا بد أنك أنت التى دفعتها » . على كل حال ، كان يمكن اعتقال بريئة لولا أن كان فى فناء المنزل أربعة أشخاص رأوا من الخارج ومن نوافذ البيت كيف كانت واقفة على النافذة محتضنة الأيقونة ، وكيف ألقت نفسها بنفسها الى تحت . وانها لمصادفة على كل حال أن كان فى الفناء أشخاص رأوها . لا ، لا ، ان ذلك كله هو ثمرة لحظة ، ثمرة لحظة من عدم الشعور بالمسؤولية . نزوة مباغته ! لماذا كانت تصلى أمام الأيقونة ؟ ليس معنى هذا أنها كانت تنوي الموت . لعل المدة التى قضتها مكبة على الحائط ، مسندة رأسها الى يديها ، مبتسمة ، لم تطل أكثر من خمس عشرة دقيقة ، فاذا هى تتخذ قرارها . انها فكرة برقت فى رأسها ، فاعتراها دوار ، ولم تستطع أن تقاوم نداء الانتحار .

هو سوء فهم لا أكثر . كان لا يزال فى وسعها أن تعيش معي . ولكن ماذا اذا كانت مصابة بفقر الدم ؟ ماذا اذا كان مردُّ الأمر الى الأنيميا وحدها ، الى نضوب قوة الحياة ليس غير ؟ يكون الشتاء قد أتعبها وأضناها ، فاذا هى . . .

لقد تأخرتُ ١١١

ما أشد ما يبدو جسمها فاحلاً في التابوت ! ما أشد ما يبدو أنفها رقيقاً ! وإن أهدابها تبدو أشبه بسهام . حين سقطت على الأرض لم نصب بجرح ولا كسر ! لم يظهر الا ذلك « الحيط النحيل من الدم » ، ان الدم الذي نرف منها يملأ ملعقة قهوة في أكثر تقدير . كانت الاصابة داخلية . فكرة غريبة تخطر ببالى : لو أمكن ألا تدفن ؟ ذلك أنها اذا أخذت منى . . فسوف . . لا ، لا . . انه يستحيل تقريباً أن تؤخذ منى . آه . . اننى أعلم حق العلم مع ذلك أنها لا بد أن تؤخذ . ما أنا بمجنون ، ولست أهذى . بالعكس : ما كان فكرى فى يوم من الأيام صاحباً كصحوه الآن . ولكن ما معنى أن البيت عاد مقفراً ليس فيه أحد ، ما معنى أنه لم يبق الا غرفتان ، وأننى قد عدت وحيداً مع الأشياء المرهونة ؟ كابوس ! كابوس ! هذا هو الكابوس !

ما قيمة قوانينكم عندى بعد الآن ؟ بل فى أى شئ تنفنى عاداتكم وتقاليدكم وآدابكم وأخلاكم وحياتكم ودولتكم ودينكم ؟ ما قيمة أن تحكم على محاكمكم ؟ ألا فلأجرّ للمثول أمام القضاة ، ولأستجوب ، فأقول اننى لا أقر شيئاً من ذلك كله . ولسوف يزأر القاضى عندئذ قائلاً لى : « امسكت ، أيها الضابط ، فأصرخ أنا قائلاً له : « من أين لك هذه السلطة التى تجبرنى على طاعتك ؟ لماذا قنلت مصادفة عبياء أعزّ انسان على قلبى ؟ ما فائدة قوانينكم كلها . اننى أنسحب » . نعم ، لا يهمنى . سأعترل .

عماوة ! عماوة ! انها ميتة . انها لا تسمع ! ألا تدرين بأية جنة كان يمكن أن أحيطك ؟ كانت الجنة فى قلبى ، وكان يمكن أن أنقلها اليك فتحف بك . ولكن كان يمكن ألا تحيينى ؟ فلتفرض هذا . كان يمكن أن تبقى الأمور على « تلك الحال » . ولكن كنت ستحكين لى ، كما يحكى صديق لصديقه ، شئونك الصغيرة ، وكنا سنبتهج ، وكنا سنبتسم

بينما ينظر كل منا في عيني صاحبه فرحاً مرحاً • هكذا كان يمكن أن نعيش • وإذا أحببت رجلاً آخر ، ما كنت سأهتم أو أكرث • كنت ستهين معه ، وكنت ستهين ، وكنت أنا سأحوّل بصرى الى جهة أخرى من الشارع ••• آه ••• ما قيمة هذا كله ، بشرط أن تفتح عينيها من جديد مرة واحدة ! لحظة واحدة ، لحظة واحدة ! وتتنظر الى ، كما كانت تنظر الى منذ قليل واقفة تحلف لتكونن لي خلية وفيه • آه ••• ان فعلت أدركت كل شيء بنظرة واحدة !

يا للقدر ! يا للطبيعة ! ان المرء وحيد على هذه الأرض • ذلكم هو الشقاء • ان المجدوم الروسى الذى تحدثت عنه الأسطورة يهتف سائلاً : « هل هنا أحد حى ؟ » • وانى لأهتف أنا أيضاً ، أنا الذى لست مجذوماً ، فلا يجيبني أحد • يقال ان الشمس تحبى الطبيعة • ان الشمس تطلع ، انظروا اليها ••• أليست كأنها ميتة ؟ كل نىء ميت • ليس فى كل مكان الا أموات • الانسان وحيد • كل ما حوله صمت • تلکم هي الأرض ! « أيها البشر ، أحبوا بعضكم بعضاً » • من الذى نطق بهذه الكلمات ؟ من أين يأتى هذا النداء ؟ من حمل هذه الرسالة ؟

ساعة الحائط تدق بغير احساس ، دقاً رتيباً منفراً • هي الساعة الثانية من الفجر • حذاءها الصغيران تحت السرير • كأنهما ينتظران • أواه ! ما عسانى أصير حين يأخذونها غداً • قولوا : ما عسانى أصير !